إنِّي خائفة

مؤمنة محمود

رِواية

رواية

إنِّي خائفة

مؤمنة محمود

تدقيق

راما عيسى محمَّد

الإهداء

إلى من تغزِلُ السَّعادةَ بيديها

ريحانة قلبي ومُهجتها..

إلى طفلتي الأُولى

ابنتي جنين..

إذا سحبكَ الخوفُ إلى أعماقه اسبحْ به

لكن إيَّاكَ أن تغرق..

لنبدأْ بحكايةٍ قصيرة..

كان هناك مزارعٌ فقيرٌ يعمل في حديقة قصر الملك، ذات يومٍ ودون قصدٍ منه نظرت عيناه إلى الأميرة، كان سقفُ طموحه عالياً، تملَّكه حُبٌّ غريبٌ حين نبضت عضلةُ أيسر صدره وتغنَّتْ بالحُبّ.

بدأت حربٌ شرسةٌ بين قلبه الرَّاغب بها وعقله الرَّافض، ومن له سُلطانٌ على القلب؟! لقد فقدَ عقله وصار يجري خلفها كالمجنون، أينما حلَّت وارتحلت وهي لا تُعيرُه أدنى انتباه.

وصل إلى مسامع الملك ما حلَّ على هذا الشَّابِّ من لوعة الحُبِّ وغرامه، لا سيَّما حين تطاول بنظراته كثيراً، وهذا ما كان ليسمح به الملك من مزارعٍ فقيرٍ تجاه لؤلؤته الغالية، فأمر حارسه أن يخطف الشَّابِّ ويفقأَ عينيه كي لا ينظر مرَّةً أُخرى إلى حُرمة الملك، صرخ الشَّابُّ بألم:

- عيناي، عيناي.

قهقهَ الحارس وقال:

- كي لا تُمتِّعَ ناظريكَ بما حرَّمه الله عليك.

تركه في الغابة الكثيفة المُلتفَّة الأشجار، والدِّماءُ تنزف من المحجرين. مشى الشَّابُّ باحثاً عن طريق منزله، وفي طريقه تعثَّر بالحجارة، ارتطم بالأشجار، ووقع أرضاً بسبب الأغصان المُنكسرة، كما سقط بالحفر، ظلَّ يمشي، يتعثَّر ويبكي ولا من سامعٍ لاستغاثته حتَّى سقط في نهرٍ جارٍ، فسحبته المياه إلى قاعها، وغسلَت عينيه وخبَّأته في قلبها.

مرَّت سنواتُ الأمس كأنَّها ساعات، وتمَّت خطبة الأميرة من أميرٍ مثلها، واحتفلت المدينة جميعُها بهذا الحدث المُبهر، ولكنْ حدثَ شيءٌ غريبٌ في تلك اللَّيلة؛ إذْ خرج الأمير من غرفتها محمولاً على الأكتاف، لا حياة فيه، لم يعرف هذا السِّرَّ أحد، وحين استفسر الملكُ من الأميرة كانت إجابتُها قصيرةً، بأنَّه حين اقترب منها صرخ برُعبٍ ومات على الفور.

مرَّ عامٌ والملك في حيرةٍ من أمره، إلى أن قرَّر تزويجها مرَّةً أُخرى ليُغطِّي تلك الفضيحة، فتكرَّر الشَّيءُ ذاتُه. وهكذا كثُرَت

الأقاويل والشَّائعات بين العامَّة حول ما يحدث في غرفة الأميرة، واعتكفتِ الأميرةُ في غرفتها مُصابةً بداء الاكتئاب، هاربةً من عيون الخادمات والأميرات.

فما كان أمام الملك إلَّا اللُّجوء إلى عرَّافٍ فطنٍ عساه يُفسِّر ما حلَّ داخل الغرفة المُغلقة، فنصحه العرَّافُ أن يُزوِّجَ ابنته لشابٍّ فقيرٍ مُعدمٍ لا تهواه ولا يقعُ في هواها يهرب فوراً ليُخبِرَنا بما يراه.

وعلى الرَّغم من اعتراض كُلٍّ من الملك والأميرة على نصيحة العرَّاف إلَّا أنَّه ما كان في اليد حيلة، فجلب الملك خادماً فقيراً رثَّ الثِّياب، كان ذا هيئةٍ قبيحة، وحين عزم أن يدخل بها بعد إتمام إجراءات الزَّواج رأى روحاً تحول بينه وبينها، كانتِ الرُّوحُ تبكي من محجرين فارغين، ظلَّ الفقير يتأمَّلُ الرُّوحَ وبداخل كُلٍّ منهما دموعٌ كثيفة، وحين اقترب الشَّبحُ وهمَّ بفقء عينيه ابتعد الفقيرُ وغادر الغرفة ليُخبِرَ الملك بما حصل.

إنَّها لعنة المُزارع الفقير قد حلَّت على ابنته، فأقسمَ ألَّا يمسسْها إنسان.

– اعذرني يا مولاي، لا أرغب أن يصيبَني ما أصاب غيري.

بضع كلماتٍ قالها الخادم الفقير قبل أن يُغادر، وظلَّت الأميرة حبيسةَ غرفتها تعيشُ لحظات انكسارها وانتظارها، لقد انتظرت رجلاً وهي تُدرِكُ أنَّه لن يأتي؛ إذ ثمَّة من يُقيِّدها، هو شبحٌ خائفٌ من نفسه؛ لأنَّه بلا عينين.

انتهت حكايتُنا

والآن لِنبدأْ بالرِّواية..

هناك على الغصن المنحني جلس شبحٌ وهو ينظر إلى الأُفق، راحت تتأمَّله بوجلٍ وتدعو الله أن يرحل، لكنَّ الشَّبح نظر إلى نافذتها وحطَّ عليها بسرعةٍ تفوق سرعة الصَّقر. يا إلهي! أين عيناه؟ أتراها السَّمكة الوحشيَّة سرقتهما؟ بدأت وجد تصرخُ وتستغيث، فهرع الكُلُّ إلى غرفتها، وأشعلَ أهل القرية أضواء منازلهم.

لقد كان الشَّبح يخاف الدُّخول إلى عالمها، وهي خشيت الاستيقاظ كي لا تدخل العالم ذاته.

وجد

ذاك البرد القارسُ لم يخرج من جسدها، حلمُها كان بسيطاً؛ أن تشعر بالدِّفء لليلةٍ واحدة، إلَّا أنَّ البرد عشَّش في عظامها واحتلَّ كُلَّ ركنٍ في جسدها، وهي خائفةٌ من دوام الفقر ومن الحرمان من الحُبِّ دون أن تمتدَّ لها يدٌ تُشعِرُها بالأمان. لم يمنحها أحدٌ معطفها يوماً ولم يتخلَّ عن الدِّفء من أجلها أحد.

حلا

كانت تخافُ الحُبَّ خشيةَ أن تتسرَّبَ إليه أسرارُ ماضيها، ومع ذلك خطَت إليه كطفلةٍ مُذنبةٍ وأمسكت يدَه خوفَ أن يُفلِتَها. وماضيها الذي ظلَّ يتكرَّرُ في كُلِّ لحظةٍ أمام عينيها منعها من الاقتراب، فابتعدت ليقتربَ هو، وحين حاولت الاقتراب كان الخوفُ حاجزاً بينهما، فاختارت الابتعاد.

عهد

لا أحد يمنح حُبَّه لمُقعدةٍ مثلِها، تلك التي تجلس لساعاتٍ لا حصرَ لها، كانت تشكرُ الكُرسيَّ باستمرار؛ لأنَّه كان مطواعاً ودوداً يحملها دون أن يتذمَّرَ منها أو يُعاتِبَها على ثقل جسدها، تحلم بحكاية حُبٍّ وحدها البطلة فيها، لكنَّها تصحو على كابوس واقعها، فمن يرغب بواحدةٍ مثلها؟! كانت تخشى مُستقبلاً يأتيها وحيدةً لا حبيبَ لها فيه.

ملاك

خائفة من العالم الخارجيّ، من الظَّلام والوحدة، لا أحدَ يزورها، الكلُّ يهملها، لا أحدَ يُرحِّبُ بها، هي صغيرتُهم وهمُّهم الأكبر، أُمنيتها التحرُّر من عُزلةٍ دفعوها نحوها دفعاً، والهروب من قفصٍ ليس على مقاسها، أن ترى العالم، لا البقاءَ في سجن وحدتها.

ملك

صرخت برعبٍ اهتزَّ له المكان:

- لا أُريدُ الموت.

نظرَ كنان إليها وصرخ بحدَّة:

- لا تخافي، تعالي معي.
- إنِّي أرتجِفُ خوفاً! دعنا نعد إلى الشَّاطئ.

سحبها من يدها ومشى بها والأمواج تتخبَّط حولهما، ثُمَّ صرخ بألم:

- الخوفُ يا وجد أن تكملي حياتكِ من دوني، أليس هذا هو الخوف الأكبر؟

- أُشاطِرُكَ الرَّأي، لكنّي لا أُريدُ النِّهاية لكلينا، دعنا نعد ونُفكِّر في حلٍّ يُرضي جميع الأطراف.

تأفَّف بحزنٍ وقال:

- قد أقسموا على قتلنا قبل أن أُفكِّرَ في ذلك، هم أقسموا على وأد مشاعرنا ودفن عواطفنا.

عادت للصُّراخ ثانيةً وهي تتشبَّثُ به خشية الغرق:

- لا، إطلاقاً، سنُحاوِرُهم ونتوسَّلُ إليهم كي يعطفوا علينا، فهم لم يعرِفوا مثل هذا الحُبِّ من قبلُ، وهم الآن لا يعرفون كيفيَّة التَّعامل معه.

نظر إليها والدُّموع تغسل وجهه وماء البحر قد وصل إلى ركبتيهما، ثُمَّ أمسك وجهها بكلتا يديه، وقال بحنان:

- هم قتلوا الحُبَّ فينا؛ لأنَّهم عرفوه جيِّداً، لا يُريدون أن يتكرَّر حُبُّهم فينا.
- حُبُّنا طاهرٌ على عكس حُبِّهم.

- كفاكِ كلاماً، تعالي نُكمل الطَّريق معاً، لن تستطيعي العودة من دوني، البحر هادئٌ اليوم وسيعطف علينا.
- لي أملٌ كبيرٌ أن أُكمِلَ معكَ ما بقي لي من حياةٍ في عناق حُبٍّ يشهده الجميع ويُباركه الصَّغيرُ قبل الكبير.

عانقَها بشدَّة، بألمٍ وحُزن، انهمرت دموعه وهو يستذكر الفراق الذي سيحول بينهما، ظنَّته سمع كلامها وسيعودُ بها إلى الشَّاطئ، لكنَّه عاد وأمسك يدَها يسحبها معه إلى قاع بحرٍ لا يرحمهما، سحبت يدها منه بقوَّةٍ وقالت بعصبيَّةٍ مُفرِطة:

- أخبرتُكَ أنِّي لا أُريدُ الموت.

عادَت إلى الوراء والتفَّت هاربةً منه مُخلِّفةً إيَّاه خلفها، سبحت كثيراً في عمق البحر لدرجةٍ خُيِّلَ إليها أنَّ المسافة بين البحر والشَّاطئ تتَّسِعُ إلى مُدنٍ أُخرى، ظلَّ واقفاً كتمثالٍ أصمَّ مُنتظراً عودتها إليه لكنَّها عاكست توقُّعاتِه؛ إذ كانت تبتعد خائفةً ظنَّاً منها أنَّه يتبعها كي يُعيدَها إلى أعماق البحر مرَّةً أُخرى، هي خائفةٌ من موجٍ مُعاكسٍ يُعيدُها إليه، وهو يتمنَّى أن تحمِلَها

موجةٌ لطيفةٌ وتُعيدُها إلى حضنه، عناقُه الأخير كان عناق خوفٍ لا اطمئنان فيه.

وصلت أخيراً إلى الشَّاطئ الذي شهد عناقها وإيَّاه في أيَّام الوله وحكايات الغرام التي ولَّت وظلَّت ذكراها شاهدةً على نهايةٍ أليمةٍ لا تليق بما عاشته من سنين حُبّ.

"الحُبُّ في قريتنا عارٌ ويجب وأدُه"، هذا ما كانت والدتُها تُردِّده مراراً، وحال أبيها حين يسمعها أن يُغمِضَ عينيه ويمضيَ في سبيله مُتألِّماً.

ارتمت على الشَّاطئ مُنهَكةً مُتعبةً وكأنَّ بها ألفَ سنةٍ تعدو دون أن تستريح، لم يعد معها، ولم يأتِ إليها، قال جملةً أخيرةً قبل أن تفرَّ من أمامه:

"طعنتُكِ قاتلة، هي الأخطرُ؛ لأنَّها أتتني من القلب مباشرةً! اهربي الآن، ولكن ستجدين روحي تُلاحِقُك، وإنَّكِ لن تجدي مكاناً آمناً تلجئين إليه".

لم تفهم قصده، ظنَّته سيتبعُها، لكنَّه ما عادَ ولم يعُد حتَّى بدا من الواضح أنَّه لن يعودَ، لقد طال انتظارُها على عتبات الألم

وهي جالسةٌ على حصيرٍ من رملٍ ناعمٍ سارت عليه أقدام عُشَّاقٍ كُثر ولم يئد حُبَّهم أحد، بل صنعوا من الحُبِّ تمثالاً يليقُ بهم، ظنَّت أنَّ المسافة ما هي إلَّا خطواتٌ قليلة، بينما كانت في الحقيقة شاسعة، فلا لقاءَ بعد هذا الفراق.

وقفت واقتربت من مياه البحر، فداعبت المياهُ الدَّافئةُ قدميها الحافيتين، تمنَّت اختفاء البحر من الخريطة حتَّى تلتقيَه مُجدَّداً، تمنَّت استئصال المسافات. لقد غاب بلمح البصر وما أتى إلى الشَّاطئ، طيفُه جال قُربَها وكأنَّه قدم من مكانٍ بعيد، أقبل راغباً مُتحمِّساً لعناقها وكأنَّه حضر تلبيةً لدعوة، زار قلبَها الغضَّ بعد أن طرقَه كطارق ليلٍ يخشى الظَّلام، جاء وحدَه راجياً قلبَها، فسرقَ الفؤاد وغاصَ في عُمقِ بحرٍ هادئٍ مُستكين، وما عاد صاحبُه إلى أرضٍ كان له فيها ميراث عشق.

"إنَّ الخيانة خطيئةٌ لا تُغتفر"، هكذا صاح جمهورُ العاشقين.. "لكنَّ الانتحار خطيئةٌ أكبر"، هكذا صاح جمهورُ الواقعيِّين الرَّافضين مهزلةَ القلب!

يعتقدُ المُحبُّون أنَّ وجد خانت لهفة كنان وغرامه، تركته وحيداً في عرض البحر يُنازِعُ الغرق، كان الفراقُ أيسرَ من رفضها الهرب معه.

ولَّت ساعةُ الجحيم وانقضَت وظلَّت في مكانها تنتظِرُ عودتَه، ساعاتٌ بأكملها مرَّت وهي لا تعرفُ أنَّ من اقترب منها هو حقيقةٌ أو خيال، طيفٌ أو واقع، أدركت بحسِّها أنَّه طيفٌ حين طارَ أمامها إلى سماءٍ بعيدة.

غاصت الشَّمسُ في كبد البحر باحثةً عن وليفٍ كانت لها معه حياة، أدركت الآن خطورة ما أقدم عليه، أيُّ الخطيئتين أكثرُ إيلاماً؟ انتحاره هرباً من مجتمعٍ يرفض غرامه؟ أم خيانةٌ وهروبٌ من موتٍ مع الحبيب؟ أيُّ حياةٍ ستحياها من بعده بعد أن سرق منها القلب والرُّوح وتركها مُبعثرةً فارغةً على شاطئ العشَّاق تنتظر وعداً من حبيبٍ ما عاد هنا؟!

من هذه السَّاعة أصبح بإمكانها الصُّراخ، بأنَّ فؤادها ما عاد ينبض بالحياة، ظلَّ قلبُها يضخُّ الدَّمَ إلى سائر جسدها ويصيحُ بها في كُلِّ صباحٍ أنَّه مُرهقٌ وسيتوقَّفُ عن عمله لاحقاً لعلَّه

يستريح من همٍّ أثقل كاهِلَه، بينما هي تُناشِدُه التَّوقُّفَ لتذهب إلى حبيبٍ ينتظرها في عُمق البحر، يروي للأسماك الصَّغيرة قصَّة عشقٍ اقتلعوها من جُذورها من قبل أن تكتمل، وقد شهد البحرُ نهاية هذه الحكاية، كان العناق قاسياً ومُخيفاً، لم يكن آمناً إطلاقاً.

دمعت عيناها لأجل حُبٍّ خسِرته، قلبُها ظلَّ يلومها وعقلها يُهنّئها على رجاحته، لم تستمع للقلب الذَّبيح. كانت كلمات كنان تطرق قلبَها بمطرقةٍ من حديد.

"الطَّعنةُ قاتلة؛ لأنَّها أتت من مسافةٍ قصيرة".. رحل معتقداً أنَّها من سدَّدت إليه طعنةً اخترقت صميم الفؤاد، كُلُّ ما في الأمر أنَّها كانت تخشى الولوج إلى قاعٍ مُظلمٍ يأكلُ خلاياها، كُلُّ ما في الأمر أنَّها خافت الموت كغيرها، فلا أحد يُرحِّبُ بالموت البتَّة.

قال لها قبل أن يسحبَها إلى الدَّاخل:

- لا تخشَي شيئاً يا وجد، سأُعانقُكِ تحت الماء، في الظَّلام حتَّى لا تري أهوالَ الموت، لن تري حينها إلَّا حُبَّاً ينبض بعشق المُحبِّين.

لكنَّها هربت قبل هذا العناق، وقد شهد البحرُ خيانتها، فتجرَّأَ على قتل الآخر حتَّى لا يتذكَّرَ العالم هذه الخيانة وتُصبحَ أُسطورةً خياليَّةً تُردِّدُها حُوريَّاتُ البحر وهُنَّ يتقاسمنه في أعماق البحر الهادئ.

لامست قدماها ماء البحر مُجدَّداً، إنَّه بحرٌ دافئٌ كدفء مايو، جميلٌ ولطيفٌ، هادئٌ ومُستكينٌ، حتَّى أمواجُه تتراقصُ بخفَّةٍ وسعادةٍ، لا يُمكن لهذا البحر الهادئ أن يقتلَ روحاً لم تفعل شيئاً، انسابت عَبراتُها إلى مياهه فالتحمت بها، فكَّرت في أيِّ بقعةٍ تركته، نظرت إلى البعيد، أهو في الشَّرق؟ أم في الغرب؟ أغمضت عينيها كي تمحوَ عَبراتٍ ازدادت لتُخبِرَها أنَّ الحبيبَ قد مات، وعليها أن ترثيَه طيلةَ حياتها.

هذا البحر يقذفُ بالمُتخاذلين إلى الشَّاطئ، فلا مكان للأرواح الهشَّة فيه، لا مكان للضَّعيف ولا للجبان، وكنان كان قويَّاً،

جابه التَّيَّار، وجعل القوم يعضُّون أناملهم ندماً، واختارها لترحلَ معه بدلاً من النَّحيب على أطلال غرامهما، قال لها قبل يومٍ من الآن:

- أخافُ على أناملكِ أن تقتلعيها ندماً إنْ تركتِني أرحل من دونك.

لمَ لم يكن هناك خيارٌ آخر يُرضي جميع الأطراف؟ لم يرأف لحالهما أحد، لقد حكموا على موتهما بتلك الطَّريقة، صرخت كثيراً، بكُلِّ آهٍ مُتألِّمةً ذبيحة، كان أنينُها يعلو في سماء هذا الشَّاطئ الكبير، لم يسمع نحيبَها أحدٌ إلَّا موجاتٍ صغيرةً تهادت فوق قدميها وداعبت أصابعَها وكأنَّها تُعزِّيها عمَّا فقدت.

الأمواجُ بطيئةٌ في الرَّكض، لم تكن خائفةً ممَّا قد يحمله البحر في جُعبته وكأنَّها خبَّئته كنزاً تحتضنه، بدت الشَّمسُ أمامها حمراءَ كدمِ الخطيئة، والبحرُ ساكتٌ وفي جُعبته تُقامُ الحربُ الضَّروسُ وكأنَّه عابدٌ خاشعٌ يُصلِّي لعلَّ خطاياه تُغتفر، ظلَّت عيناها باهتتين مُمتلئتين بعَبراتٍ بريئة، تارةً تنظرُ إلى الأُفق البعيد وتارةً إلى مكان اختفائه.

إنَّهما لم تعودا تُبصِران إلَّا أحلاماً ماتت للتَّوِ وشبحاً مازال يعارك الأمواج يُطالِبُ للمرَّة الأخيرة بعناقٍ طاهر.

مازالت تُراقِبُ عودتَه إلى شاطئ الغرام، لكنَّه لم يأتِها، فواصلت الزَّحفَ وحدها بعد أن أدارت ظهرها للمرَّة الثَّانية، واختبأت خلف الحكايات الوهميَّة والنَّدم الآثم، هربت بعيداً دون أن تُواجِهَ معصيةَ الحُبِّ الأوَّل، ظلَّت على حالها دائمةَ الهرب حتَّى ما عادت تعرف ما ستفعله بها الأيَّام.

أيكونُ ذنبُها في الحياة أنَّها أرادت الحياة؟ لم تُرِدِ الموت لها وله، أرادت العيش معه كحبيبين لا يفترقان.

كُلَّما اقترب الموت منها خُطوةً تباعدت قدماها خُطوات، كان يُواصِلُ الزَّحف إليها في حين كانت تُواصِلُ الزَّحف بعيداً عنه وكأنَّها ضحيَّةٌ مكلومة، لم تُواجِه كنان ولا الموت، لم تُواجِه خوفها ولا نفسها، بل اختبأت خلف الحكايات كفأرةٍ جبانة.

وقف الجميع أمامها، منهم من اتَّهمها بالعار ومنهم من اتَّهمها بالقتل، وبانتحاره جلب لها فضيحةً كانت مُستترةً وظهرت إلى العلن. في حين كان المنزل المُقابل لمنزلها تُقامُ فيه طقوس العزاء كانت هي في مخدعها تستمع إلى القرآن بقلبٍ مُتألِّمٍ يئِنُّ، لم تُصدِّق بعدُ أنَّ من هواه قلبُها أصبح ذكرى في عالمٍ لم يعد له فيه مكان.

نهضت تحثُّ الخُطا نحو الشُّرفة، استندت إلى حافَّتها بمِرفقيها وتنهَّدت والدُّمع ينهمر من المُقلتين مُعلِناً عصيانه وثورته عليها، كان أهل القرية جميعُهم في ذاك المنزل يبكون فقيدَهم بينما هي ابنةُ الجيران الممنوعة من أخذ عزائه.

الكلُّ قد لامها على ما صنعت، نظرةُ العتاب والخذلان من والديها كادت تقتلُها مع أنَّها ليست نادمة، فهي عشِقت حتَّى سيطر القلب على العقل، لمَ الجميع يلومُها على هوى قلبها؟ بريئةٌ هي من تلك الحادثة، ولا ذنب لها سوى أنَّها أرادت الحياة، وهو اختار أيسرَ الطُّرق للهروب وتركها وحدها تُواجِهُ مُجتمعاً مُكفهرَّاً غاضباً.

لقد رغبت بالهروب بعيداً عن فوضى هذه القرية، عن هذا الجمع المُعاتب لها، عن ذاك البحر الهادر، عن نفسها التي ما عادت تعرف شيئاً، لمَ لم تستجب له وتُكمِلِ السَّيرَ معه بعيداً عن ضجيج أهل القرية؟

كانت تشعر بأنَّها تُناقِضُ نفسها، تارةً تبدو نادمةً لكونها لم تستجب له وتارة راضيةً عمَّا فعلته، وإن تكرَّر المشهد كانت ستهرب من الموت إلى الحياة، مسحت دمعتها وهي تتذكَّر أيَّامها الهانئة معه. لقد رغبت بالفرار بعيداً عن أماكنَ اجتمعا بها في زمنٍ مضى، فالخطر من حولها كبيرٌ وخاصَّةً بعد أن أقفل عليها يامن الباب بالمفتاح، عنَّفها كثيراً حتَّى طالت يدُه وجهها، صفعها صفعاتٍ متتاليةً لعلَّها تستفيق من وهم الحُبِّ، لم تستجِب لصفعاتِه، بل ظلَّت جامدةً دون حراك، لم يهتزَّ لها جفن، في كُلِّ مرَّةٍ كان يسمع كلاماً عنها يأتيها مُسرِعاً ويفتعِلُ معها مشكلاتٍ دون سببٍ يذكره ويعود لضربها، اتَّهمها مرَّاتٍ عدَّةً بأنَّها جلبت العار لهم ووضعت رؤوسَهم في الطِّين، لا ينفكُّ والداهما في إبعاده عنها، بينما تظلُّ والدتها تلطمُ خدَّيها

على ما أصاب ابنتها من مسٍّ وتبكي بقهرٍ قسوةَ الأخ على أخته.

انقضت أيَّامُ العزاء وتبِعتها أيَّامٌ قاسيةٌ على الجميع، وهي ظلَّت في غرفتها حبيسةً لا تُغادِرُها البتة، مع أنَّ يامن قد فكَّ أسرها ولم يعد يُضايِقُها كما السَّابق أو يقفل عليها الباب، تجاهلها وكأنَّها لا تعيش معه في نفس البيت.

نامت أخيراً والدَّمع يتأرجحُ على الخدَّين، لكنَّ نومها لم يكن عميقاً؛ إذ رأت ظِلّاً يقترب منها ببطءٍ شديد، جلس أمامها على الفراش، رفع عصاه المصنوعةَ من خشب الآبنوس إلى السَّقف فانطفأت الأضواء ولم يبقَ إلَّا محجرين فارغين تسلَّل منهما ضوءٌ أخضر. في كُلِّ خُطوةٍ خطاها إليها كبرَ أعواماً حتَّى رأته كهلاً يتأمَّلها بحزن، اقترب منها أكثرَ حتَّى لم يعد يفصِلُ بينهما إلَّا الهواء، لاحظت أنَّه يُشبِهُ حبيبَها كنان إلى حدٍّ بعيد، لا عينان له، ومع ذلك تقطرُ من المحجرين دمعاتٌ ساخنةٌ لو حاولت مسحها لحرقت أناملها، باغتها حين مدَّ يدَه إلى وجهها، تحسَّسه وكأنَّه مُشتاقٌ إلى لمسها.

دقائقُ قصيرةٌ مرَّت قبل أن يُباغِتَها ويمدَّ يده إلى عينيها بغية اقتلاعهما، صرخت وأبعدت وجهها وخبَّأته بيديها، وحينها صرخ الشَّبحُ خائفاً من صراخها العالي، لقد أراد عينيها لعلَّه يراها بهما مُجدَّداً، فالسَّمكة الوحشيَّة أكلتهما، وهو لم يُرد من الدُّنيا إلَّا الحصول عليهما.

في البداية كان صراخُها حبيسَ حلقِها، ثُمَّ سرعان ما انتفضت من نومها وهي تُطلقُ صرخاتٍ عاليةً جعلت الجميع يهرول نحوها، ناولتها والدتها كأس ماءٍ وظلَّت تقرأ آياتٍ من القرآن عليها، كان صوت تنفسِّها عالياً والعرقُ يتصبَّبُ من جبينها، بدأت تتلمَّس عينيها المُغمضتين وهي تظنُّه قد سرقهما، ربتَ والدُها على كتفها لعلَّها تهدأ وتستكين، بينما استندَ يامن إلى حافَّة الباب متأمِّلاً شحوبَ وجهها، أتراها قسوته عليها فاقت المقبول؟ أم أنَّ التَّجربة كانت قاسيةً على الجميع؟ تنهَّد بصوتٍ مسموعٍ وعاد إلى غرفته شارداً بما كان بين أُخته وابنِ الجيران.

جلست حلا مع والدتها التي مازالت تحمل صورة وليدها، تبكي وتتحسبن على وجد وكأنَّها التي دفعته إلى الانتحار، مسحت حلا دموع والدتها مُطالبةً إيَّاها الدُّعاء له بالرَّحمة، لكنَّ أنين الأُمِّ المُؤلم جعل الأُخرى تَرثيه بدمعٍ على الخدَّين قد انسكب.

- الكُلُّ يُطالِبُني أن أبترَ مشاعر الألم وأقصَّ أحزاني وكأنَّ الذي خسرته لم يكن فلذةَ كبدي، ليس بإمكاني أن أضعَ في يدي جمرةً من نارٍ وأُصرّحَ بأنَّها مُكعَّبُ ثلج، لا أستطيع ذلك، لا أحد منهم يفهم مشاعر الأُمِّ وهي تفقد أحد أبنائها.
- نحن لا نُطالِبُكِ بنسيانه، نُطالِبُكِ بأن تكوني رحيمةً بحقِّ نفسِكِ وبحقِّنا أيضاً.
- وابني الذي فقدتُه صغيراً؟
- إنَّه القدر يا أُمَّاه، لا اعتراض عليه.

عانقت والدتها والحزنُ يرسمُ لهما أيَّاماً لن تشعرا بالسَّعادة فيها، استمع علاء إليهما وهو يُدرِكُ أنَّ دموع والدته ما هي إلَّا ندم

على تفريقهما، جلس قبالتها فعرفت ما يدور في خلده، انتفضت واقفةً، وعلى الفور قالت:

- ليست لديَّ إجاباتٌ عن أسئلتك.
- لو لم تُعانِدي زواجهما لما جلست في مجلس عزائه.
- ما حصل كان بترتيبٍ من القدر، وإن كنت قد وافقتُ فنادين لم تكن ستباركُ هذا الزَّواج، إنَّها تخشى تكرار الماضي.
- وجد ضحيَّتكما، هي وكنان.

قالت حلا بألم:

- وجد خسرت حُبَّ حياتِها أيضاً، فهي عاشقة، والقلبُ ليس عليه لومٌ حين يعشق، لقد تعرَّضت للتَّعنيف من قبلِ يامن مرَّاتٍ عدَّة، حتَّى إنَّه حبسها في غرفتها ولم تخرج منها إلَّا لماماً.

كانت هيفاءُ على علمٍ بالعشق الكبير بين ابنها ووجد لكنَّها عاندت الأقدار لتنتقمَ لكبريائها، خيَّرت ابنها أكثرَ من مرَّةٍ بينها وبين حبيبته، كان الأمرُ شاقَّاً عليها، لم تستطع أن تضعَ يدها

بيد مُنيرٍ لتُزوِّجَ ابنها بابنته، وهو من كان غرامَها الأوَّل، غدر بها حين رفضت والدته زواجهما بحكم تفاوت الطَّبقات ما بين العائلتين، وهكذا امتثل لأمر والدته، وفي ليلةٍ وضحاها أصبحت نادين زوجته وهي غريبةٌ لا يحقُّ لها النَّظر إليه، وغادرتِ القرية هرباً من ذاتها، من حُبٍّ مازال يسكن أعماقها، وفي الغربة تزوَّجت رجلاً لم تشعر نحوه بالحُبِّ إطلاقاً، ومع ذلك أنجبت منه ثلاثة أبناء.

عادت بعد سنين طويلةٍ لتُدرِكَ أنَّ الحُبَّ لم تطوِهِ الأيَّامُ وأنَّ كُلَّ حجرٍ في القرية سيُذكِّرها بعشقٍ لم تنسَه. دارت الأيَّام ولعب القدر لعبته ليتركَ ابنها بنات القرية جميعهنَّ ويهيمَ عشقاً بالابنة، وإذْ جاء الاعتراض قويَّاً من الجانبين. خشيت نادين أن يُعادَ فتح الدَّفاتر القديمة، لذلك رفضت هذه الزِّيجة، بينما رحَّب منير بالأمر مُمتنَّاً لابنته كي يلتقيَ بحبيبته الأُولى مُجدَّداً، أمَّا هيفاء فرفضت الأمر ثأراً لكرامتها حين رفضها قبل أعوامٍ من الآن، أرادت الانتقام وردَّ الصَّاع بصاعين، وقرَّرت ألَّا تجلبَ ابنة منير كنَّةً لها. ولكن، كان للقدر رأيٌ آخر؛ إذْ ابنته ظلَّت في ديارها وابنها ما عاد هنا.

ندمت أشدَّ النَّدم على ما فعلته، ليتها اتَّبعت حدسها الأُموميَّ وتركت كرامتها وكبرياءَها جانباً، ولكن من يعترض على القضاء والقدر؟!

ذاك الموقف حوَّلها إلى أُنثى خائفةٍ على الدَّوام، سيتطلَّب الأمرُ أعواماً عديدةً لتعودَ إلى طمأنينتها الأُولى، وقد لا تعود، لم يعد سريرها آمناً، هذا السَّرير الذي ارتمت عليه أيَّاماً تغفو عليه لتريحَ نفسها من هموم الحياة صارت تهرب منه، لم يعد نومها هادئاً إطلاقاً.

وقفت أمام الحامل ترسم شبحاً هرِماً خائفاً من نفسه، رسمته بيدها المرتعشة، بدا لها حزيناً متألِّماً، ظلَّت تتأمَّله في حين كان يتأمَّلها ويُرسِلُ لها ابتساماتٍ حزينة، مدَّ يده غيرَ الآمنة نحوها، فابتعدت عنها، كانت يده طويلةً بطول جراحه، انسحبت إلى رُكنٍ قصيٍّ من الغرفة واحتمت هناك في الزَّاوية، جلست القرفصاءَ وخبَّأت وجهها في كلتا يديها لعلَّها تحتمي منه، وبكت بقهرٍ بعدد أيَّام غيابه.

هرعت والدتها إليها وانتشلتها من دمعاتها، طبطبت عليها، أجلستها على سريرها وراحت تُثرثِرُ في أشياءَ كثيرةٍ كي تُنسيَها ما عاشته للتَّوّ.

ذاك النَّهار لن يُمحى من ذاكرتها، كان نهاراً قاسياً، بالرَّغم من أنَّ شمس مايو كانت رحيمةً بهما حين بعثت الدِّفء لقلبيهما، لم يكن يوماً كئيباً بل كان لطيفاً هادئاً، لكنَّ ذاك النَّهار لم يكن لطيفاً بالنِّسبة لكنان؛ إذْ كان يائساً إلى أقصى درجة، ولم يكن لطيفاً بالنِّسبة لوجد، فقد أضحى العشرون من مايو سجنها الأبديَّ، هذا اليوم الذي تغيَّرت فيه حياتها للأسوأ ولم يعد يصلح معها أيٌّ من أشكال السَّعادة.

غادرت والدتها وهي تُحوقِلُ على حال طفلتها، في حين جلست وجد تتأمَّل صورته بين فوضى الصُّور المُجمَّعة في هاتفها، هدأ قلبها واستراح عقلها قليلاً حين كبَّرت الصُّورة بإصبعيها، فتراءت لها عيناه البُنيَّتان وتحوَّلت ملامحها في لحظةٍ من أُنثى خائفةٍ إلى أُخرى آمنة، ودَّت لو بإمكانها تقبيل وجنتيه، كانت نظرات عينيه دافئةً تحمل لها الحُبَّ الكبير، سرحت في ذكرياتها معه، في تلك اللَّيلة حين لمحته خلف بيته يقطع الأخشاب بفأسه تأمَّلت ملامحه وكأنَّها تحتفظ بها في ذاكرتها مُدرِكةً أنَّ يوم الفراق آتٍ لا محالة، كان يعمل حينها بهمَّةٍ ونشاطٍ وكأنَّه يهرب من واقعٍ لا يرغب به، وضعت يدها على كتفه، فنظر إليها

ووضع الفأس جانباً، جلس مُستنداً إلى جذع الشَّجرة، ابتسم لها فبادلته بأُخرى، ثُمَّ قالت له:

- أشعر وكأنَّكَ دائمُ القلق والتَّوتُّر.

أشاح وجهه بعيداً، ثُمَّ قال:

- لا أعرف إن كان عليَّ النَّوم لأستريح بعد يومٍ مريرٍ مُتعِبٍ أم لا، أخشى النَّوم فيأتيني الغدُ من دونك.
- سنبقى نُحارِبُ لأجل هذا الحُبّ.

وضع يده على موضع قلبها وهمس لها:

- أخشى أن أُحارِبَ الجميع، فيُحاربَني هذا القلب.

أكان يقصد حقَّاً في تلك اللَّيلة وذاك النَّهار أنَّها لم تُحارِب من أجله؟ أكان عليها الموت قرباناً كي يُصدِّقَ الجميع أنَّها عاشقةٌ مُغرَمة؟

قال لها يامن بعد الحادثة بأيَّامٍ قليلةٍ إن كانت قد ماتت معه فلن يكون لها عزاء، ولن يذكرها أحد، وسيتبرَّأُ منها الأهل والخلَّان. استطاع هو إسكات من تحدَّث عنها بسوءٍ أمامه، إنَّه كان

غراماً من طرف كنان فقط بينما لم تُبادله هي الغرام إطلاقاً. لقد استطاع الكذب على الجميع ولم يستطع الكذب على مالك الذي وقف قبالته يسخرُ من كلامه؛ إذْ كان شاهداً على هذا الغرام، كنان كان يقصُّ على صديقه حكايات الوجد التي يعيشها مع وجد، وما فعلته الأُخرى ذاك النَّهار ما هو إلَّا خوف الموت، فحُبُّ البقاء غريزةٌ أساسيَّةٌ لدى الإنسان.

كانت حلا تسقي ورود بستانها حين مرَّ مالك بها، كان الطَّريق إلى حقله يمرُّ بجانب بستانها، حيث كان يُلقي عليها تحيَّة الصَّباح والمساء، وكثيراً ما كان يتعمَّد إبطاء سيره، فيجلس بجوارها، وأحياناً يقف على أعتاب بستانها يُحدِّثها بأُمورٍ شتَّى.

اقترب منها وقطف وردةً صفراءَ وأهداها إيَّاها، ارتسمت ابتسامةٌ بسيطةٌ على مُحيَّاها، تأمَّلت الوردة بإشفاقٍ، وبعدها نظرت إليه وقالت:

- أهذه دعوةٌ صريحةٌ للغرام؟

تفاجأَ من سؤالها غير المُتوقَّع، سألها مُستفسِراً عمَّا تقصده، فأجابت:

- لكُلِّ وردةٍ حكايةٌ ودلالة، إن لم تكن مُستعدَّاً لها فلا تهدها لأُنثى مُغرمةٍ بالتَّفاصيل.
- وإن كنتُ راغباً بصداقةٍ لطيفة؟
- فلتكنْ بيضاءَ إذاً، دليلُ صداقةٍ نقيَّة.
- وإن كانت صفراء؟

ابتسمت له وهي العاشقةُ الصَّامتة، أخذتها منه ولم تخبره بدلالتها، تركته في حيرته وعادت إلى منزلها، نظرت إلى الوردة بحزنٍ، لقد اختار أن يكون حُبُّهما حزيناً كحال وردته الصَّفراء، لم يعرف أنَّها تُمثِّلُ الحُبَّ الحزين، لذلك رغب بها بشدَّة، وأصرَّ على أن تكون أوَّل هديَّةٍ لها هذه الوردة.

تكرَّرت زيارته لها، وفي كُلِّ مرَّةٍ يقطف وردةً صفراءَ ويضعها في شعرها، فيبتسم لها ويُخبرها عن مدى إعجابه بتفاصيلها، وهي السَّعيدة بكلام الغزل؛ إذْ استطاع إخراجها من قوقعة الحزن على أخيها، رسم لها الفرح حين قال:

- لنتَّفِقْ على لقاءٍ يجمعنا يوميَّاً نكسر به حاجز الخوف والقلق.

ابتسمت ولم تُعقِّب على كلماته، فأردف:

- حدِّثيني عن أيَّامكِ بتفاصيلها، دعيني أُبحِرْ في عالمكِ النَّقيّ وأتوهُ في حياتكِ اللَّطيفة، لنرسِمْ درب الحُبِّ معاً.

أمسكت يده قائلةً بنبرةٍ حالمة:

- عِدني ألَّا تبتعدَ باختيارِكَ دون أن تُودِّعَني، لا تدعني أتوسَّدُ أحلامكَ وأُحاوِرُ طيفكَ كالمجانين، لا ترحلْ إن كان بإمكانكَ البقاء.
- أعدكِ بكُلِّ ما تُطالبين به، سأبقى العمر بأكمله لكِ؛ إذْ إنَّ الكثير من الكلمات جاثمةٌ على صدري، سأتحدَّثُ بها وإيَّاكِ حتَّى يبزغ الفجر، لن تطيبَ الحياة دونك، سأحترق بنار غيابكِ ولن أستطيعَ طيَّ صفحتكِ بسهولة.
- لكنِّي فتاةٌ لا تليق بهذا الغرام.
- وهل كان الفقرُ يوماً عيباً كبيراً؟
- هذا الكلام سيحكيه غيركَ وستصمت أنت.
- لن أُعيدَ تجربة غيري، فلكُلِّ منَّا حكايةٌ مختلفة، هم حكموا على قصصهم بانتهائها لغير مصلحتهم، أمَّا نحن فمازلنا في البدايات.
- أُريدُ هذا الحُبَّ بشدَّة، ولكن أخشى ألم الفقدان.
- لا تكوني سجينةً لشيءٍ لن يحدث، فكِّري في الحاضر وانسي أمر الغد.
- هل تقبلني بجميع حالاتي؟

- بالتَّأكيد.
- مزاجي يتغيَّرُ في الدَّقيقة خمس مرَّات، تارةً تجدني مُبتهجةً وتارةً حزينةً لأسباب أجهلها، تارةً راغبةً بحبّكَ وتارةً خائفةً منه، وإنّي عقلانيَّةٌ ومُتهوّرةٌ في آنٍ معاً، دائماً أكون في منتصف تناقضاتي.
- ستكون لديَّ أُنثى مُتعدِّدة المواهب، ثُمَّ إنَّكِ أُنثى ضائعة، كوني معي لأُوصِلَكِ إلى البرِّ الآمن.

ابتسمت لعذوبة كلماته الآمنة، ودَّت لو يظلُّ لها العمر بأكمله، فقد تعبت من كونها منبوذةً وعائلتها بسبب آفة الفقر، الآن وجدت سنداً في هذه الحياة غير العادلة، وجدت من يسحبها ويُرشِدُها إلى طريق الحُبِّ، لكنَّ به من العذاب ما يُفتِّتُ قلبها.

غادرت إلى ملاك لتقصَّ عليها رواية هذا الحُبِّ الذي طرق فؤادها، وما إن فتحت له حتَّى زرع رياحينه في قلبها المُتعب، جلست قبالة ملاك تقصُّ عليها مخاوفها من هذا الحُبِّ؛ إذْ جاءها عاصفاً قويَّاً وهي غصنٌ رقيقٌ تخشى أن يكسرَها ويفتكَ بها.

ظلَّت ملاك تستمع لنجوى الحُبِّ على لسان صديقتها حتَّى صمتت الأخيرة بعد تنهيدةٍ عميقةٍ أخرجتها من القلب.

استمعت ملاك وهي جالسةٌ على كرسيِّها المُتحرِّك لحُبٍّ لم تُجرِّبه من قبل، ودَّت لو صديقتها تستمتع بهذا الحُبِّ وتُزيلُ عنها هواجسها المرضيَّة، فقالت:

- الخوف من غرامه لن يمنعكِ من الموت بقدر ما قد يمنعكِ من الحياة، استمتعي في أكثر لحظاتكِ جنوناً إلى أن يأتيَ الفراق، عساه لا يأتي، حينها تكون لديكِ أطنانٌ من الذِّكريات الجميلة تعيشين بها.
- حينها تكون قد نفدت روحي واستُهلكت، سأبقى أعيش ما بقي لي من العمر أُرمِّمُ ما أحدثه الحُبُّ الأوَّل من انكساراتٍ وهزائمَ في داخلي.
- لا تُرهِقي نفسكِ بكثرة التَّفكير والخوف من المجهول، رُبَّما لن يأتي هذا الفراق إطلاقاً.
- ورُبَّما يكون للنَّصيب والقدر رأيٌ آخر، حينها أكون قد أرسلتُ مشاعري لوجهةٍ خاطئة.

- إنْ ظللتِ على هذه الحالة لن تعيشي؛ لأنَّ الخوف سيُلازمكِ طيلة حياتك، ثُمَّ إنَّ الخوف من الحُبِّ لهو الحُبُّ نفسه، أنتِ قد وقعتِ في درب الغرام فلا تُنكري الأمر على نفسك.

صدمها هذا الكلام، أحقَّاً هي وقعت في غرامه؟ نظرت إلى ملاك الصَّامتة وودَّت لو تنفض هذا الاتِّهام عنها، فبداخلها أحاديثُ كثيرةٌ عنه ورغبةٌ في البوح بمكنونات صدرها، ومع ذلك رفضت اتِّهام الحُبِّ وكأنَّه خطيئةٌ ويجب مداراتها، التزمت الصَّمت؛ لأنَّها مازالت واقعةً في حيرتها، وقفت مُستأذنةً من ملاك؛ لأنَّها كشفت هذا الغرام قبلها، أمسكت هذه الأخيرة يدها وقالت لها:

- تعلَّمي الانتصار على مخاوفك، اهزميها وحاربي من أجل هذا الحُبّ.

أومأت حلا برأسها وغادرت، بينما ظلَّت الأخيرة تنظر إلى أثرها بحزن؛ لأنَّها لن تجدَ هذا الحُبَّ، جميلةٌ هي ولا أحد يُنكرُ هذا الجمال لكنَّها فردٌ ناقصٌ لن تُكمِّلَ أحدهم يوماً، من يرغب

بمشلولةٍ قعيدةٍ على كُرسيٍّ مُتحرّك، كانت مليئةً بالثُّقوب ولن تجد سوى الحُبِّ من مسافاتٍ بعيدة، قد يكون من طرفٍ واحد، لن تحترق كُلَّما سمعت همسات الحُبِّ من صديقاتها؛ إذْ تغلَّف قلبها بالألم ولم تعد تشعر بشيء.

ذاك المنظر الذي أشاحت وجهها عنه ظلَّ يلازمها على الدَّوام يسخرُ من ضعفها ويستهزِئُ بخوفها، وكُلَّما وجدها خائفةً أمدَّها بجرعةٍ جديدة، لقد أصبحت سجينةً له؛ إذْ قيَّدها بقيودٍ وهميَّةٍ وامتلكها بكُلِّ جوارحها وصار يُحرِّكُها كيفما يشاء. اقتربت من نافذتها بعد أن سمعت أنيناً يأتيها من الخارج، فتحتها وليتها ما فعلت؛ إذْ كان جالساً على غصنٍ من أغصان شجرة المشمش الممتدَّة إلى حافَّة نافذتها، تسلَّل ضوءٌ أخضرُ إلى عينيه، ظلَّت شاردةً تتأمَّله، كيف شاخ ولم يمرَّ على وفاته عشرةُ أيَّام، ناظرها بألمٍ وعتابٍ وشوقٍ وحنين، فناظرته بخوفٍ وهلع، بحذرٍ وترقُّب، كادت أن تُغلِقَ نافذتها، لكنَّه أفزعها حين حطَّ كحمامةٍ بيضاءَ على نافذتها، وامتدَّت يده إلى وجهها لسرقة ما ليس له، صرخت وجد وابتعدت، صرخ هو وما ابتعد، لم تكن تعرف لمَ في كُلِّ مرَّةٍ تصرخ من قربه، فيزداد صراخه الذي لا يسمعه أحد سواها. كانت ذات الصَّرخة التي صرخها في عمق المياه وحيداً والتي لم تسمعها؛ لأنَّها كانت قد عادت إلى الشَّاطئ، لكنَّه في كُلِّ يومٍ يُذكِّرُها بصرخة القهر كي تعتادَها في حياتها كتعويذةٍ تهرب منها فتُلاحِقُها في ساعات أيَّامها، ركعت

على ركبتيها ووضعت يديها على أُذنيها كي تخفض ضجيج صرخاته، لم يهرع إليها أحدٌ هذه المرَّة؛ لأنَّها كانت وحيدةً في المنزل، لكنَّ صراخها قد ابتلعته جميع البيوت المجاورة لها.

وقفت حلا أمام منزلها تستمع إلى صراخ وجد المُستمرِّ، ودَّت لو تذهب إليها فتُعانقها، لا ذنب لها فيما حصل لأخيها لكنَّها مُحرَّمٌ عليها دخول ذلك البيت، فالعداوةُ بين العائلتين ازدادت حدَّةً ولم يعد أحدٌ يُطيقُ النَّظر إلى وجه الآخر، الكُلُّ يتَّهم الآخر بما حدث وبأنَّها مقصودةٌ لإعادة إحياء الماضي وبعثرة الحاضر من جديد. ظلَّ الكُلُّ يستمعون إلى الصَّرخات الصَّادرة منها، منهم من اتَّهمها بالجنون وبأنَّ روح كنان تُطارِدُها بهدف الانتقام منها، ومنهم من طلب من والدها إرسالها إلى شيخ القرية كي يرقيها ويبعد عنها وساوس الشَّيطان، ومنهم أيضاً من طلب إرسالها إلى مشفى الأمراض العقليَّة. أمَّا والدها فلا حول له ولا قوَّة، وحين عودته إلى بيته في كُلِّ مساءٍ يراها مازالت معتكفةً بغرفتها، ينظر إليها بقهر والدٍ لم يفرح بابنته بعد، يُغادِرُها مفعماً بأمل أن تخرج من حالتها هذه ذات نهار.

عادت عهد إلى منزل ذويها دون استكمال دراستها في العاصمة، فبعد فضيحة وجد خاف عليها والداها من فضيحةٍ أُخرى، وكان يامن هو من أصدر هذا القرار، فهو وحده من يتحكَّم بقرارات العائلة، قراراته دائماً ما تكون فاشلةً إلَّا أنَّه في هذه المرَّة حاول أن يُصيبَ قدر الإمكان، ففكرته تتمحور حول أنَّ وجد كانت أمام أعينهم وغافلتهم وعاشت أيَّام العشق دون أن يعرفَ أحد، فكيف يكون حال تلك البعيدة عنهم التي تعيش وحيدةً في السَّكن الجامعيّ في قلب العاصمة.

وضعت عهد حقيبتها أرضاً واتَّجهت إلى غرفة شقيقتها، وجدتها واقفةً في الشُّرفة مستندةً إلى سورها تُراقبُ بيت كنان الذي اكتسحه السَّواد منذ أن غاب قنديل المنزل، لم تدرِ إن كان عليها أن تواسيَها على ما حدث أم تحقد عليها لأنَّها السَّبب في ترك حياتها هناك والعودة إلى هذا السِّجن المقيت!

عهد ليست كوجد بريئة، إنَّما كانت جامحةً تمشي وراء رغباتها غير مكترثةٍ بأعرافٍ ولا تقاليدَ اجتماعيَّة، تعيش على هواها غير عابئةٍ بقوانين أهل القرية، لا أحد يعرف ما تُخفيه هناك، والكُلُّ يتحدَّث عنها بالخير وأنَّها لم تفتعل الفضائح كوجد، وعلى الرَّغم

من سفرها وغربتها إلَّا أنَّها لم تُخيِّب سيرة والديها العطرة، كُلُّ هذا الكلام كانت عهد تفعل نقيضه غير مباليةٍ بالجميع.

اقتربت من وجد واحتضنتها من الخلف، ابتسمت تلك فهي تعرف هذا الحضن الأخويَّ، لفَّت جسدها إليها وعانقتا بعضهما، دفنت رأسها في صدر أُختها وانهارت في البكاء وتلك تمسح على شعرها بحنان، أجلستها على سريرها وجلست بجوارها تتحدَّث في شتَّى المجالات حتَّى تنسى كنان، لكنَّ ما لفت نظرها رسومات شبحٍ مُخيفٍ يجلس على غصن شجرة المشمش، في عينيه تجلَّت حكاياتٌ مُرعبة، أدركت عهد كُنه الحكاية وأنَّ هذا الشَّبح يُطاردُ أُختها ليل نهار، كانت الوحيدة التي تعرف أسرار أُختها وشاهدةً على حكايات الغرام، تُدرِكُ أنَّ روح كنان ما هي إلَّا روحٌ مُتملِّكةٌ ستُهلِكُها وهي تُلاحِقُها تبغي القصاص منها.

همَّت بالخروج من الغرفة فاستوقفتها تُناشِدُها ألَّا ترحل كي لا يجيء، قالت عهد:

- إلى متى ستستمرّين بهذا الخوف، لا تسجني نفسكِ داخل دائرته، تقدَّمي خُطواتٍ واسبقيه.
- لا أستطيع، الكلامُ ما أسهله! والفعل ما أصعبه! أصبحتُ أخاف من الوقت وهو يتربَّع على عرش الأرقام، فيُباغتني كُلَّ دقيقةٍ ويقفز إلى أحلامي التي لم تعد ملكي، وسريري هذا لم يعد آمناً، هذا الخوف يُلازمني في كُلِّ كابوسٍ ولوحةٍ وحتَّى عبر النَّافذة، إنَّه يُحاصرني من كُلِّ الاتِّجاهات.
- هذه جميعها أفكاركِ أنتِ، لمَ تُصرّين على سجن نفسكِ في متاهة الخوف، الحياةُ لا تقف عليه، ستستمرُّ رغماً عنكِ وعنه، لا تقفي عند تلك اللَّحظة، فهناك لحظاتُ فرحٍ قادمةٌ فاستعدّي لها.
- الخوف منه قد سيطر عليَّ وتملَّكني وشلَّ حركاتي، إنَّه يُطاردني في كُلِّ السَّاعات، لا يستريح ولا يدعني أستريح.

- أنتِ تحتاجين الرَّاحة والاسترخاء، اهربي من الخوف ومن توقُّع الأسوأ ومن القلق، اهربي من هذه المعارك التي تخوضينها وحدك.
- أين أهربُ وفي كُلِّ الوجوه أراه؟
- إلى البحر، واجهي مخاوفكِ وستنجحين.
- مشهدُ البحر مازال عالقاً في ذاكرتي، السَّاعة الخامسة عصراً، اليوم العشرون من مايو، إنَّه يتردَّد في ذهني ويبقى يحتلُّ الجزء الأكبر من الذَّاكرة.
- لذلك واجهي خوفكِ وانتصري عليه.

تركتها تُحاول تحديد ما تُريد، لا أحد يفهمها سوى عهد، فهي الوحيدة القادرة على فهم ماهيَّة الحُبِّ، وعلى الرَّغم من أنَّ عهد لم تُجرِّب الحُبَّ ولم تمشِ فيه أشواطاً كوجد إلَّا أنَّها تُدركُ أنَّ جميع قصص الحُبِّ في هذه القرية نهايتها حزينةٌ وجميعها تُقابَلُ بالرَّفض وكأنَّ الكبار يُريدون عيش حيواتهم التي ولَّت وحيوات غيرهم! الحُبُّ يُحرِّرُ الخائفين من خوفهم، ولولا الحُبُّ لما نجا أحد.

جلست حلا في بستانها تتأمَّل زهورها وذهنُها شاردٌ في علاقتها مع مالك، تأمَّلت ألَّا يفترقان، كانت تستحقُّ حُبَّاً يساعدها على النَّوم بهدوءٍ دون أرقٍ أو أفكار مُقلقة، تستحقُّ شخصاً لا يكترث لفقرها، تستحقُّ علاقةً مريحةً دون حيرةٍ أو إشارات استفهام. تأمَّلت ألَّا تظلَّ خائفةً من أن يُساءَ فهمها، وألَّا تستيقظ وهي خائفةٌ من خسارته. مالك كان الخيار الوحيد لديها، وقد تمنَّت أن يكون الأبديَّ، ولكن في حالتها تلك حين تُوضعُ القوانين والتَّقاليد والأعراف والعادات الاجتماعية المُتوارَثة يُستثنى الفقير كالعادة فلا يخضع إلَّا لقوانين الإجرام، أمَّا في قوانين الحُبِّ والزَّواج يجب الانتماء إلى الطَّبقة ذاتها، ومن الإجرام النَّظر إلى الطَّبقة العليا، فهو خُلِقَ ليعملَ خادماً لتلك الطَّبقة لا أن تُساوى الرُّؤوسُ ببعضها، وهذا ما كانت تخشاه، أن تمنح قلبها لمالك فيدوسَ عليه ويتركَه مُهترِئاً لا يصلحُ لحُبِّ غيره.

كان ينظرُ إليها مُحاوِلاً اختراق أفكارها لعلَّها تستسلم له وترفع رايتها البيضاء، لكنَّها اتَّسمت بالعناد في كُلِّ ما طُلب منها،

نظرت إليه حين انتبهت لوجوده، أعادت نظرها إلى الأرض خجلةً من عينيه، جلس قبالتها على حجرٍ صغيرٍ وقال:

- أما زال الحُبُّ يُخيفُك؟

لم تُجِبه، ظلَّت في صومعتها رافضةً الإذعان لقلبها ولنبرة صوته الهادئة المُستكينة المُطمئِنة، فأكمل:

- لن تكوني حُرَّةً إطلاقاً إن ظلَّ الخوف يُلازِمُك، الحياة ما هي إلَّا أقدارٌ وأعمارٌ تمضي، الحياة مُستمرَّةٌ ونحن في حياتنا مُطالبون على الدَّوام بالاختيار، ولن تستقرَّ بنا إلَّا إذا وضعتنا موضع الاختيار، فاختاري ما بين خوفكِ الذي لا وجود له وما بين القلب الذي ينبض بغرامك.
- الخوف من البدايات يُقلقني، أعلمُ أنَّكَ راغبٌ دوماً في محادثتي وأنِّي أشغلُ تفكيرك، أرغبُ بأن تصبحَ صديقاً برتبة حبيب، ولكنَّ وجع النِّهايات لن يحتملَه أحدٌ سواي، ستظلُّ أنتَ تحتفظ بالمشاعر الجميلة وتبقى المُؤلمةُ تخصُّني وحدي، ستنتصرُ وسأُهزَم، الخوف من ذلك يجعلني أكتفي بأقلَّ من نصف الأُمنيات.

- لِمَ تُراهنين على النِّهايات والبدايةُ لم تبدأ بعد؟
- لأنَّ النِّهايات دائماً صادقة، أمَّا البدايات فهي مُبهِرةٌ وجميلةٌ كزينة ميلاد.
- لكنَّني في شباك الحُبِّ وقعت على الرَّغم من أنِّي لا أملك مُقدِّمةً أخلق بها حديثاً آمناً، في كُلِّ مساءٍ أعود من حقلي مُتعباً فأشعر حين أراكِ بأنَّني عدتُ إلى أرضي مُجدَّداً، أنتِ اليقين الذي لا يهزُّه الشَّكُّ، الأمانُ الذي لا يُخالِطُه خوف، حين ألمحُ عينيكِ أشعرُ بالانهزام من الدُّنيا وأنتِ انتصاري الوحيد.

ابتسمت لكلماته التي داعبت أوتارَ قلبها، وهمست:

- هل ستحاول من أجلي؟
- إنْ لم أُحاوِل من أجل قلبي فلمن سأُحاوِل؟
- إنْ غادرتَني دون سابق إنذارٍ سيتحوَّلُ خوفي إلى نقطة ضعفٍ ولن أستطيعَ معالجتها، سيقضي رحيلُكَ على ما تبقَّى من قلبي بعد رحيل كنان.

نظر إليها وكأنَّ في ملامحها جميع أُمنياته، أومأَ لها بابتسامته المُطمئنة، منحها الكثير من الوعود وقطف وردةً صفراءَ أهداها لها رمزاً لحُبٍّ جديدٍ لم يكن إلَّا حُبَّاً حزيناً.

كانت وجد تجري أميالاً هاربةً من ظلٍّ يجري خلفها، يُناديها باسمها، ظلَّت تركضُ وهو يتبعها حتَّى وصلت إلى زقاقٍ ضيِّقٍ فاحتمت داخله، سرعان ما أشرف عليها من أعلى الجدار، صرخت، وعلى الفور هربت، لكنَّ نهاية الزُّقاق مسدود، التفتت إلى الخلف وإذ بذاك الظِّلِّ قد غلَّفَ الجدار كسحابةٍ سوداءَ، هبط أمامها كغرابٍ لا يعترف بخطيئته، همس بصوتٍ دافئ:

- عانقيني شهراً.

وضعت يديها على عينيها كي تحميَهما منه بعد أن لمحت الوميض الأخضر في محجريه.

- لا تخافي منِّي، عيناك جميلتان مازلتُ أذكرُ حين وقعتُ في غرامهما، لا أُريدُ من دُنياك سواهما.

ما هذا؟! أيطالبُها ألَّا تخافَه ثُمَّ يقوم بتهديدها بسرقة عينيها؟! وحين أبعدت يديها عن وجهها رأت دمعاً مُنسكِباً من محجرين فارغين! أكمل:

- أحببتُكِ بطريقةٍ لكم تمنَّيتُ أن تُبادليني بأفضلَ منها.

حاولتِ الكلام، فباغتها مُحاصِراً لها ما بين الجدار وصدره، حاول أن يفقأَ عينيها، فصرخت وجد، وصرخ هو، كلاهما كانا يصرخان وصوتهما لا يتعدَّى آذانهما. لقد أشلَّ صراخه العالي حركتها وأصمَّ أُذنيها، تململت في فراشها والعرقُ يتصبَّب من جبينها، حرَّكت رأسها كثيراً مُحاوِلةً الهرب من هذا الكابوس والاستيقاظ، فاستجاب لها عقلُها، لقد نبَّهها للاستيقاظ، وحين وصل صراخها إلى الجميع أُشعِلَت أنوارُ بيتها والبيوت القريبة منه، بدأ الشَّتمُ واللَّعن من الجوار عليها وعلى من جاورها.

لطالما شعرت ملاك بالغربة بين عائلتها، لم يمنحها أيٌّ منهم الحبَّ الذي منحته لهم، لم يُقدِّروا هذا العطاء، لطالما كان مالك هو بطل العائلة، فهو السَّويُّ الوحيد الذي لم يُخلق به عيبٌ بخلاف ملاك وملك الصَّغيرة المُصابة بمتلازمة الدَّاون والمخفيَّة عن عيون أهل القرية، فلا يرى أحدٌ النَّقص في هذه العائلة.

كانت ملاك كاسمها دائمة العطاء، أعطت الجميع الحُبَّ من أهلٍ وصديقاتٍ وقلبها مليءٌ بالنُّدوب، منحتهم دفئاً لا حدود له بينما كانت بينهم ترتجف برداً، زرعت في نفوسهم الطُّمأنينة وهي في قمَّة خوفها وقلقها، كانت تُعبِّدُ لهم دروب الأمل وهي تمشي تائهةً عن دربها، حتَّى صديقاتها بذلت ما بوسعها لتسمع حكاياتهنَّ فتمنحهنَّ الأشياء الجميلة وهي مؤمنةٌ بأنَّ هذه الأشياء ستُرَدُّ إليها ذات نهار، اعتذرت للجميع عن قسوة العالم ولم يعتذر لها أحدٌ عن كُلِّ الألم الذي صادفته والحرمان الذي عاشته وهي في كنف والديها، الحياةُ حرمتها السَّيرَ نحوهم، ومع أنَّهم جميعهم يملكون أقداماً ومع ذلك لم يمشِ أحدٌ منهم إليها،

كانت تشعر بسعادةٍ عارمةٍ لرؤيتهم سعداء، تشعر بالفخر وهي ترى أثر كلماتها مرتسمةً على وجوه صديقاتها.

كانت تعرف أنَّ مالك يعيش قصَّة حُبٍّ في ذلك الوقت، فلغة جسده تفضحه جيّداً وعيناه تغزلان السَّعادة، ابتسمت لسعادتهما مع أنَّها فاقدةٌ هذا الحُبَّ، لم تبحث عنه كمالك ولم تنتظره كحلا؛ لأنَّها واثقةٌ بأنَّه ليس هناك من سيُغرمُ بمقعدةٍ مثلها، هي مُتصالحةٌ مع نفسها تعرف أنَّه لن يتعلَّقَ بحبال غرامها أحد.

كانت المرَّة الأولى التي خرجت بها وجد من مخبئها، جلست في حديقة المنزل تحت ظلال شجرة المشمش، استندت إلى جذعها وعادت بذاكرتها إلى ذلك اليوم الذي تسلَّق فيه شجرة المشمش وظلَّ يُحدِّثُها ليلاً طويلاً وهي مُستندةٌ بمرفقيها إلى حافَّة النَّافذة بينما هو هائمٌ بها، سألته حينها:

- ما الذي بيننا؟ أهو الحُبُّ؟ أم ماذا؟
- ليس حُبَّاً ولا معرفةً عابرةً ولا صداقةً بريئة، ما بيننا شغفُ الحُبِّ وأرقُ الوجد يا وجد، أمواجٌ هائجةٌ وبراكينُ ثائرةٌ واشتياقٌ لا يُقاوم.
- ستملُّ هذا الحُبَّ ذات نهار.
- حين أموت، ما بيننا علاقةٌ تجاوزت الملل والعتاب وحرقت مراحل الغياب والشَّكِّ والقلق والخوف.
- سيُصيب هذه العلاقة الفتور يوماً، كيف تُعيدُها إلى طُمأنينتها الأُولى؟
- ما بيننا لا يقتله إهمالٌ ولا يُحطِّمُه غياب؛ لأنَّ عشقنا معادلةٌ يصعب حلُّها ويستحيل فكُّ رموزها، نحن راحة بعضنا، وما بيننا ليس له تاريخ انتهاء.

أرسل لها قُبلةً في الهواء ونزل مُسرعاً قبل أن يراه أحد، مسحت دمعتها العابرة بظاهر يدها وأغمضت عينيها وتنهَّدت، وجدت يداً تمسح دمعتها ولم تكن سوى يده، تأمَّلته بشوقٍ وحنين، وتأمَّلها بألمٍ وعتاب، نظرة الخذلان منه كادت تخنقها، إنَّها لم تستطع أن تراها والمحجران فارغان، لكنَّ تقويس فمه جعلها تشعر بمدى ألمه، وكُلَّما عاتبها قتلها عذابُ ضميرها.

وبعد أن هدأت دموعها ابتسم لها وامتدَّت يده إلى عينيها، هزَّت رأسها رافضةً ما يطلبه، حاصرها ما بينه والشَّجرة، قاومته ولم تنتصر، كان أقوى منها بمراحل، صرخت بألمٍ وهو يُحاولُ أن يفقأ عينيها، فصرخ بألمٍ مُضاعف. ولأوَّل مرَّةٍ توسَّل إليها أن تمنحه عيناً واحدةً فقط كي يراها بها، لم يعد يُكحِّلُ جفنيه بمرآها بعد أن أكلت السَّمكةُ الوحشيَّة عينيه، لقد أراد قسمةً عادلة، أن يُبقيَ لها عيناً واحدةً ويأخذَ الأُخرى، لن يهدأَ ولن يستكينَ حتَّى يحصلَ على ما يُريدُ منها، وبعدها لن تراه ثانية، هربت إلى غرفتها واحتمت بين جدرانها وخلف بابها الذي أوصدته جيِّداً، لكنَّ غرفتها الآن ليست آمنة، إنَّه هنا يتلصَّص عليها ليسرقَ ما

لديها، ارتمت على سريرها تبكي غيابَه وخوفَها منه، لطالما كان أمانها، والآن ما هو إلَّا مصدر خوفٍ وهلع.

الخوف منه جعلها تشيخ في وقتٍ مُبكر، لم تكن مُهيَّأةً لكُلِّ هذا الخوف، في كُلِّ مرَّةٍ رأته فيها حاولت طرد الخوف من قلبها، كانت تشعر معه بالأمان للحظاتٍ قليلةٍ وبعدها يعود ويُمسك الأجراس في يده لتدقَّ في صدرها وتُؤلِمَ معدتها وتصبح كالحجر، فيتدفَّق الأدرينالين مسرعاً ليزيدَ سرعة ضربات قلبها ويرتفع ضغط دمها ويرتفع الكورتيزول المسؤول عن هرمون التَّوتر لديها، فتنضب طاقتها وتتكبَّ على سريرها مُحاولةً تهدئة نفسها.

لم يرحمها، وإنَّما أتاها ليسحقَ قلبها كما سحقت قلبه، لم يُكلِّف أحدٌ من عائلتها خاطره السَّؤال عنها ومعرفة ما يجري داخل غرفتها وكأنَّهم رموه لها ليصنعَ بها العجب.

وظلَّت في كُلِّ ليلةٍ تكتم ما في قلبها، واستمرَّ الأرق يزورها خشية أن تنام فتستيقظ على كابوسٍ جديدٍ لتُقتلَ في اللَّيلة ألف مرَّة، وهو يُقدِّمُ لها الخوف والقلق والجزع على بساطٍ من ألم،

ويزيد الجرعات كلَّما صرخت، وكأنَّه يتلذَّذ بصرخاتها المنتفضة لتهرب منه بسيقانٍ مُرتجفة بينما الأرض تميد بها وتُسقطها كعصفورةٍ غريبةٍ عن أرضها ذاقت مرارة الوحدة، أخطأت الطَّريق وكانت نهايتها على أرضٍ لم تملكها يوماً، لم يكن الذَّنبُ ذنبَها ولا الخطيئةُ خطيئتَها، تهمتها أنَّها تمسَّكت بغريزة البقاء، فأذاقها الخوف أضعافاً مضاعفةً وهي تشعر بأنَّ الجميع ضدَّها وكأنَّها التي قتلته ومنحته للأسماك.

نُعِتتْ بأسوأ الصِّفات، جاحدة، بائعة الهوى، وفضيحة الحُبِّ لم تسلم منها، غرسوا خناجرهم في قلبها دون رحمة، لم تتحرَّك؛ لأنَّهم لا يعرفون الحُبَّ وغرامه، لم يعش أحدٌ منهم مثل هذه القصَّة، بل مارسوا الزَّواج كعادةٍ من عادات المجتمع المتوارثة، لم يعرفوا حتَّى معنى كلمة "حُبّ"، لذلك بصقوا عليها وعلى من ساندها وساعدها وجاء ليُكملَ عليها مُطالباً بحقِّه في عينيها بالعدل والإنصاف، وحكَّم نفسه في قضيَّةٍ هو الرَّابح بها وهي الخاسرة، هو القاضي والجلَّاد والحاكم والضَّحيَّة، وهي المُتَّهمة الممنوعة من الدِّفاع عن حقِّها، فليس لها حقوقٌ في محكمته.

في كُلِّ لوحةٍ ترسمها يُطالبها بالرَّحمة والإحسان، وفي كُلِّ هروب تقدم عليه يُطالبها بعينٍ واحدةٍ كي يراها ليعلمَ إن مازالت على عهد حُبِّه أم نقضته حين ولَّت هاربةً تاركةً إيَّاه يُنازعُ أمواجاً ثائرةً كي يعودَ إليها.

لم يكن يُريد الموت وحيداً، بل أرادها معه، وحين لم يجدها سارع إلى إبعاد الماء عنه، لقد حاول الخروج مراراً وتنازع مع الأمواج وهو يُناديها، صرخ صرخته الأخيرة وأفقدته الحياة نفسه، فعاد إليها في كُلِّ ليلةٍ مُحمَّلاً بوزر قتل النَّفس بغير حقٍّ، يُعاتبها حيناً وحيناً يشتاق إليها، يتمنَّى عناقها والغوصَ في أحضانها، حرَّمها على جسده في حياته لتكونَ حلاله، فكانت له حراماً، وما بعد الموت أيضاً.

ها قد مرَّ شهران على رحيل كنان، لم يعد له مكانٌ في حياة الجميع إلَّا والدته التي تستذكره عقب كُلِّ صلاة، فالبيت قد أسدل أنواره مُذْ غاب سيِّده، فهو شعلة المنزل وأحد أركانه.

جلست حلا بجوار والدتها تخيط سروالها القديم وتُثرثِرُ بأشياء لا تهمُّ والدتها في شيء، كانت تُدركُ أنَّ ثرثرة طفلتها ما هو إلَّا غطاء عن فعلتها الأخيرة، قاطعتها قائلة:

- لا تعيدي تجربة غيرك، بدلاً من تكرار الأمر حاولي الاستفادة منه.

تركت حلا ما بيدها، ونظرت إلى والدتها مشدوهةً بما تُخبِرُها به.

- لم أفهم.

وضعت يدها على يد صغيرتها، وبنبرةٍ حانيةٍ أجابت:

- تفهمين ما أقصد، ليس من عاداتنا الوقوف في منتصف الدَّرب، ما هذا الحُبُّ إلَّا وهمٌ سيُؤلمكِ ولن يُوصلكِ إلى البرِّ الآمن، لن يتعدَّى القلبَ إطلاقاً.

- لمَ هذا الكلام الآن؟
- لأنَّ الواقع يختلف عن وهم الحكايات، ذاك الأمير الذي يأتي على حصانه الأبيض لينقذَ الفقيرة من قاع الفقر ما هو إلَّا وهمٌ وجب عليكِ الاستيقاظ منه. في حكايات الواقع الثَّريُّ لا يتزوَّج إلَّا بثريَّة، والفقير كذلك، في هذه المجرَّة الكُلُّ يبحث عن وليفه، عن الذي يُشبهُه، ونحن لا نُشبههم يا ابنتي.

صمتت حلا ليعودَ الخوف ويحتلَّ قلبها، فأكملت والدتها:

- لا تثقي بحُبٍّ يأتيكِ في الطَّريق، أغلقي الكتاب الذي جمعكما قبل أن تبدأَ حكايةٌ نهايتُها دموعكِ وانتصارُه، لن ترضى بكِ والدته، فهي تُراهنُ نساء القرية على مالك وتفتخرُ به في كُلِّ المناسبات.

طوَّقت وجه صغيرتها، وأكملت:

- الحُبُّ ضعف، وهذا الحُبُّ سيُضعِفُكِ ويُؤلمُك، ولن يُطبطِبَ على قلبكِ أحد.

تركتها تُفكِّرُ بهذا الحديث، هي لم تكن تخشى ضياع الحُبِّ، فالجميع يفقد هواه ما بين الفينة والأُخرى، كانت تخشى أن تفقدَ معه ذاتها ولا تجدها، وهذا ما أغرقَها في دوَّامةٍ من الفكر، كُلَّما اقترب منها ابتعدت عنه، وحين اقتربت أبعدتها عنه كلمات والدتها، وهكذا كُتب عليها أن تخاف هذا الحُبَّ وتُرتِّبَ أفكارها في عقلها بطريقةٍ فوضويَّة، أن تنشغلَ بلغة جسده وإيماءاته وتفاصيله الصَّغيرة لتصنعَ منها كارثةً وتهربَ قبل أن يُلاحِقَها.

كانت عهد في حديقة منزلها تنشر الغسيل على الحبل وتتمتم، تشتم قرارات يامن الجائرة التي أرجعتها إلى السِّجن، مسحت دمعاتها، فقد اشتاقت إلى أيَّام اللَّهو والطَّيش، لم تتألَّم لجامعتها ودراستها وإنَّما لأصدقاء العبث والرَّقص والمجون، شعرت بأنَّها سجينةُ العادات هنا، فيامن إضافةً إلى جلبها استحوذ على هاتفها كي لا تسيرَ على نهج وجد مع أنَّها السَّبَّاقة في حكايات اللَّهو والغرام، وجد لم تتعدَّ الواحد بالمئة من أفعال شقيقتها الطَّائشة، ولكن من سوء حظِّ تلك أنَّها وقعت تحت مجهر أعينهم والأضواء تتبعها أينما ذهبت. وأمَّا عهد فقد مارست رذيلتها سرَّاً عن عائلتها وعلناً في جامعتها، مارست ما تُريدُ في مكانٍ أبعدَ ما يكون عن القرية وأهلها، وحدها من وصلت إلى الجامعة لاستكمال دراستها.

ظلَّ علاء مُراقباً لها، لقد أراد أن يفهمَ أسرار هذه العائلة المقابلة لمنزله، كأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يعيش في خرابٍ يخصُّه، لم يستطعِ الاقتراب منها فهي لم تُمثِّلِ البراءة كوجد، لاحظ نظرات الخبث في عينيها، أراد الاقتراب لكنَّها كانت كالآنية المُذهَّبة المُحرَّمة عليه، ما الذي هام به شقيقُه في شقيقتها ولم يجده هو فيها؟

وأسئلةٌ أُخرى كثيرةٌ دارت في رأسه ولم يصل إلى أجوبة تُرضيه، أراد أن يُجرِّبَ ما فعله كنان، أن يُؤلِمَ هذه العائلة كما تألَّمت عائلته بسببها، وعلى الرَّغم من أنَّ مصابَهم واحدٌ إلَّا أنَّ عائلة وجد لم تحضرِ العزاء، فقط وقف كبيرهم أمام عتبة الباب وألقى كلماتٍ مواسيةً وغادر على عجل، ظلَّ واقفاً مُتأمِّلاً حركاتِها وسكناتِها وحركات شفاهها حتَّى أنهت عملها وغابت في منزلها.

عبرت وجد الطَّريق الفارغ إلَّا من شعاعٍ تسلَّل إليها عبر شقوق الجدران، كان الظِّلُّ يعبر خلفها الطَّريق مُسرعاً، ركضت، فركض الظِّلُّ، ظلَّت تعبر طُرقاتٍ مُظلمةً فارغةً وتُجاهِدُ ألَّا يصل إليها، وصلت إلى ساحةٍ كبيرةٍ مُضاءةٍ بأنوار باهتة، ظنَّت أنَّها انتصرت عليه، فركضت مُسرعةً وإذْ بها تسقط من عُلوٍّ شاهقٍ في بئرٍ مهجورٍ مُظلم، صرخت تستغيثُ بالمارَّة، مرَّت بجوارها عائلتها وكذلك صديقتها وأهل قريتها ولم ينظر إليها أحد، إلَّا هو كان يتأمَّلُ ملامح الخوف السَّاكن في عينيها، امتدَّت يده الطَّويلة لسرقة ما ليس له، خبَّأت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء، ثُمَّ صرخت حين حاول إبعادَ يديها عن وجهها، لم يصرخ معها هذه المرَّة، ظلَّ يُحاولُ فكَّ يديها عن وجهها، وحين وجدها لا تستجيب له تركها واختفى.

استيقظت في منتصف ليلةٍ من ليالي يوليو الحارِّ تتصبَّبُ عرقاً، ارتشفت من كأس الماء الذي بجوارها، ثُمَّ ضغطت على زرِّ المروحة كي يأتيَها بعض الهواء؛ إذ كادت تشعر بالاختناق، ولكن ما إن دارت حتَّى صدحت ضحكاته عالياً، وكُلَّما دارت المروحة كانت الضَّحكات تعلو، وميضٌ أخضرُ

يُتابعُها خلف الشَّفرات، صمَّت أُذنيها بيديها كي لا تنهارَ ممَّا تراه.

نامت مُتعبةً من فرط الخوف والبكاء، ليت باستطاعتها اختيار أحلامها كي لا تزورَها هذه الكوابيس، استيقظت مرَّاتٍ عدَّةً حتَّى نهضت ووقفت قبالة النَّافذة، أرادت أن تتحدَّاه بفتحها، لكنَّها جبنت في اللَّحظة الحاسمة. كان اللَّيل طويلاً جدَّاً، ولم يرقَّ لحالها، بدا وكأنَّه والأيَّام من أعدائها، يكفيها هذا اللَّيل أن تحلمَ أحلاماً كثيرةً تتجاوز العشرة، كم تمنَّت أن تتوقَّفَ هذه الكوابيس عن الرَّكض خلفها! لم تعلم بأنَّها ما هي إلَّا نتاج أفكارها، وعقلها الباطن هو من يُخزِّنُ لها النَّدمَ وذكريات الماضي المخفيَّة في أسفل دهاليز ذاكرتها السِّرِّيَّة، تمنَّت كثيراً أن ينتهيَ هذا العبث فتصعد إلى خالقها لعلَّها تنسى الألم، أرادت الهرب من هذه الأحداث القاهرة لروحها والاختباء في مكانٍ بعيدٍ لا تصل إليه روح كنان.

أضاءت نور غرفتها وشرعت برسم هذا الظِّلِّ المُتواري خلف حكايات الخوف، في كُلِّ خطوةٍ يخطوها يكبر أعواماً حتَّى شاخ وهو في طريقه إليها، اكتملت اللَّوحة، ظهر ظلٌّ حزينٌ لعجوزٍ

شاخ في حياةٍ لا تخصُّه، ابتسم الظِّلُّ بألمٍ وكأنَّه يشكرها لمنحه عينين؛ إذ كفاه ركضاً وراءها كي يسرقَ جوهرتيها.

كان رجلاً جميلاً معها، علَّمها الشِّعر وما هو بشاعر، وليته علَّمها العيش دونه ودون مشاعرها الهائجة الصَّارخة بغرامه، ليت هذا العبث ينتهي ويعود إليها حاملاً معه الأمان، فينتزع منها رداء الخوف والقلق.

ظلَّ الظِّلُّ يُوزِّعُ لها الابتسامات حتَّى رمت قماشةً بيضاءَ على الحامل كي تُخفيَه عنها، لكنَّها سرعان ما شعرت بأنفاسٍ حارَّةٍ تُلهبُ عنقها، استدارت ببطءٍ وليتها ما فعلت، لقد وجدته خلفها لا يفصل بينهما فاصل، فزعت منه وكادَ أن يُسبِّبَ لها نوبة هلع، أرادت الصُّراخَ فكمَّ فمها، ابتسم بسخريةٍ وقال لها بصوتٍ كفحيح الأفعى:

– سيبقى الفقد يُفتِّتُ قلبك، والخوفُ يُداهِمُك، لن تجدي أمان العيش.

أبعد يده عن فمها، فقالت:

- يكفيني ما فقدتُ إلى الآن، ويكفي هذا القلبَ ما ذاق من أوجاع.

ضحك بصوتٍ عالٍ، ثُمَّ قال:

- رحلتكِ مع الآلام أبديَّةٌ لا نهاية لها، لن أرتاح هناك قبل أن تُصبحي مريضةً بي، سأنتظركِ كُلَّ يومٍ في الخامسة عصراً على ذات الشَّاطئ وفي ذات البقعة، وكما قدَّمتُ ذاتي قُرباناً لكِ افعليها أنتِ وكوني على عهد الغرام.

اختفى من أمامها دون أن يُطالبَ بعينيها، عادت بها الذَّاكرةُ إلى الوراء، وفي عصر يومٍ صيفيٍّ جلسا يُراقبان النَّورس على الشَّاطئ، فقال لها:

- عندما تُحاولُ الطُّيورُ الهبوط تتأكَّد أوَّلاً من شعورها بالأمان في المكان الذي ستهبط به، وبعدها تهبط بسلامٍ، كأرواحنا حين ترتاح لشخصٍ ما فإنَّ أوَّلَ ما نُطالبُ به الأمان، إن وجدناه سعينا للحفاظ على هذه العلاقة، أمَّا إذا كان الخوف أساس العلاقة سنهجر المكان دون أسف، وحتَّى لو شعرنا بوخزات الألم فالزَّمن

كفيلٌ بأن يطمسَ الأوجاع، إن عاندنا وبقينا فإنَّ هذا الخوف سيسرق عمرنا وسعادتنا ويُبقينا جسداً لا روحَ فيه.

كان يتأمَّلُ الحياة من بعيدٍ كشاهدٍ وليس كممثِّل، وحين طاله سهم الخوف من الفراق حاول طرق جميع الأبواب لعلَّهم يتفهَّمون هذا الغرام، ولكن أُغلِقَتِ الأبواب في وجهه!

وبين ليلةٍ وضحاها جاءه الرَّفض من جميع الأطراف، لقد سرقوا الأمان الذي كان يمنحه لها على الدَّوام، سلبوه جميع المشاعر الجميلة التي اختزنها من أجلها.

كانت المرَّة الأُولى التي يذرف الدَّمع بسببهم، صرخ في وجوههم الكالحة، توسَّل إليهم، هدَّدهم بحياته، لم يرحمه أحد، لذلك قرَّر ما فعله بعد أن فشلَ في إقناعهم، أرادَ الهرب من ظُلمهم إلى البعيد وسرقتها معه، هذه الحياة التي ما عاشها يوماً آمناً ولا حُرَّاً طليقاً، كان الخوف يُلاحقه خشيةَ أن يُطلَّ نهارٌ جديدٌ وليس معه ما يسدُّ به رمق عائلته، هو الرَّجل الأوَّل في عائلته التي تركته في حيرةٍ زمناً ليس بقليلٍ وهم يرفضون سماعه، لقد أغلقوا

حتَّى نوافذهم في وجهه وابتعدوا عن كُلِّ دربٍ يجمعهم به كي لا يطالبَهم بهذا الغرام، وأوَّلُ من نحره كانت عائلته التي أكلها النَّدم الآن؛ لأنَّها وحدها من خسرته.

حلَّ الصَّباحُ وخرجت حلا كعادتها تسقي زهورها، لقد تمنَّى قلبها أن يمرَّ فارسها بجوارها بينما رفض عقلها هذه الأُمنية، فالخوف مازال مُتربِّصاً بها، هو خوفٌ حيوانيٌّ لا تفسير له، لم تستطع حلَّ أُحجيته، بقيت أسيرة أفكارها تنتظر أن يُحرِّرَها، لقد أرهبتها خسارته، لذلك ظلَّت ترفض غرامه.

اقترب منها بينما هي غارقةٌ في سيل أفكارها تُحاول ترتيبها وتفشل في كُلِّ مرَّة، ناداها باسمها، نظرت إليه، ثُمَّ أشاحت عنه وجهها لتكملَ سقاية مزروعاتها، قطف الوردة وأهداها لها، مازال يُصِرُّ على الحُبِّ الحزين، أخذتها منه خجلاً، فهي تخجل من أن تردَّ هديَّته أو تقابلَه بفظاظة، تركتِ الأُمورَ تجري كيفما تشاء؛ لأنَّها أجبن من أن تردَّ الأذى عنها أو تردَّ كلام الحُبِّ منه، كسرتِ الصَّمت حين قالت دون أن ترفعَ ناظريها عن ورودها:

- أخشى هذا الغرام، إنّي مليئةٌ بما لا أستطيع البوحَ به، خائفةٌ ممَّا تصنعه بي كلماتك، من نهاية هذا الغرام لمصلحتك.

كانت ترتجف خوفاً وألماً، ترتبك لأقلِّ همسةٍ يُصدرُها، فقال بصوتٍ خشن:

- استعيدي هدوءكِ أوَّلاً، الكُلُّ يعيش في حالة خوفٍ وقلق، لستِ وحدكِ من تُعانين، هؤلاء النَّاس الذين يمرُّون أمامكِ صباحاً كُلُّهم يعيشون في قبضة الخوف، البعض منهم يعي ذلك والبعض الآخر يتجاهل هذا الشُّعور، عيبكِ أنَّكِ ترين العيوب دون المزايا، الظَّلام لا النُّور، تخافين تعليقات الآخرين السَّلبية وتنسين ثقتكِ بنفسك، تبدين مفزوعةً من فشل الحُبِّ دون أن تتأمَّلي نجاحه، الحياة غامضةٌ يا حلا، إن فكَّر كُلُّ إنسانٍ مثلكِ سيظلُّ مكانه ولن يتقدَّم خطوةً واحدة، الحياة ليست إلَّا مغامرةً خطيرةً علينا اجتيازها ومقاومتها لنصل.

ابتسمت له، ربتَ على كتفها وأكمل:

- يوماً ما ستكونين فخورةً بكُلِّ الصِّعاب التي مررتِ بها وبكُلِّ لحظةٍ أثَّرت فيك، وبكُلِّ خوفٍ وقلقٍ انتزعتهما منك، فخورةً بعبوركِ إلى الطَّرف الآمن.

ابتسم وغادرها على أمل أن تقعَ في هواه، انتظرت مغادرته إلى حقله لتُسرعَ إلى ملاك وتقصَّ عليها مخاوفها والنَّبأَ السَّعيد بأنَّه يُحاولُ من أجلها، هو من لهث وراءها وليس العكس، ووقع الغنيُّ في غرام الفقيرة لتصدقَ الأساطير. جلست على ركبتيها أمام ملاك، وضعت رأسها في حجر صديقتها وقالت بصوتٍ هادئ:

- أُمنياتي قليلةٌ جدًّاً، أن أمتلكَ بيتاً هادئاً به أريكةٌ سوداء، تُحيطُ به الزُّهور من كُلِّ جانب، وتتراقص حوله الفراشات، به من الحُبِّ ما يكفي لانتزاع الخوف من قلبي.

مسحت ملاك على شعرها قائلة:

- أنتِ مُتعبةٌ من علاقةٍ لم تبدأ بعد، مازلتِ في بداية الطَّريق، فلمَ كُلُّ هذا القلق؟

تنهَّدت حلا، وبكت بحرقةٍ قائلة:

- أُريدُ الهرب من هذا الغرام إلى مكانٍ لا أجد فيه إلَّا نفسي دون قلقٍ أو خوف.

- اهربي الآن.
- إنَّه يُحيطُني من كُلِّ الجهات، وكأنَّه صنع متاهةً كبيرةً وأدخلني بها، لم يدلَّني على طريق الخروج، أخاف أن يخرجَ قبلي ويتركني وحدي تائهة.
- كوني واثقةً به وبالقدر، سينتهي هذا التَّعب والبكاء في ليلةٍ ما وتغفين دون قلقٍ وخوف.
- لا أخشاه بقدر ما أخشى عادات المجتمع المُتوارثة، والسَّعي الدَّائم للتَّفريق بين المُحبِّين.
- الحُبُّ يُحرِّرُ الخائفين من خوفهم، فلولا الحُبُّ لما نجا أحد، أحبِّي الحُبَّ يا حلا، واتركي الخوف جانباً.
- أخاف أن يهربَ يوماً مُتذرِّعاً بالنَّصيب والقدر.

حادثتها مطوَّلاً حتَّى مسحت عبراتها وعادت هادئةً مستكينةً إلى بيتها، راقبت ملاك أثرها بحزنٍ واضح، حسدت حلا على مشاعرها المُتحاربة في صدرها، لقد تمنَّت أحياناً لو يقفز مثل هذا الحُبِّ إلى صدرها، لن تكونَ سلبيَّةً كحلا، بل ستُحاربُ من أجل الغرام، لكنَّها أدركت أنَّها خارج دائرة العشق ولن يُفكِّرَ بها

إنسانٌ سويٌّ، لن يلمحَها أحدٌ وهي في قوقعتها حبيسة منزلها، منبوذةٌ من عائلتها، قريبةٌ من صديقاتها.

وتمرُّ حياتها أمام عينيها دون أن تمسكَ بها، تجاوزت فتراتٍ كثيرةً من الضَّغط والتَّعب والتَّفكير والألم والتَّنمُّر، كانت تخشى أن يمرَّ ربيع عمرها دون أن تنتهيَ من هذا التَّفكير، لقد حاولت أن تُشتِّتَ عقلها بحوارات صديقاتها حول مشاكلهنَّ وهمومهنَّ، كانت تُحاورهنَّ بذكاء، وقدَّمت لهنَّ العديد من النَّصائح فبدت وكأنَّها حكيمة قريتها.

وهكذا ينتهين من سرد ما في جعبهنَّ من آلامٍ ويرحلن بعد أن يُودِعن أحزانهنَّ لديها كوديعة، وتبقى هي تُفكِّرُ في حالها التي لا يعلم أحدٌ عنها شيئاً، الكُلُّ يعتقد أنَّها اعتادت على ما هي عليه لكنَّها أضعف من أن تعتاد الوجع.

اقترب علاء من عهد ووقف قبالتها، نظرت إليه شذراً وحاولت الابتعاد عنه، كانت تعي نظرات الإعجاب المُطلَّة من عينيه، أمسكَ يدها وكأنَّ الكهرباء لامستها فارتعشت، سحبت يدها سريعاً وكادت أن تُعنِّفه، فرفع يديه عالياً مُدَّعياً البراءة والسَّلام، قال:

- ما لي أراكِ وحيدةً على الدَّوام؟
- لا أجدني بينهم، لا أشعر بانتمائي لهذا المكان.
- ألم تعتادي بعد؟
- الاعتياد مُؤلم، حين تعتاد أمراً فأنتَ حقَّقتَ إنجازاً رائعاً؛ لأنَّكَ مررتَ بمراحلَ مختلفةٍ من الخوف والأرق والسَّهر والقلق حيثُ اللَّيل طويلٌ والبكاء لأتفه الأسباب، وبعدها نعتاد الأمر، وهنا نستكين أو بمعنىً آخرَ نتخدَّر.
- لكنَّها عائلتك؟

ابتسمت بسخريةٍ ولم تُجِب، كانت أذكى منه بمراحل، عرفت ما يدور في خلده دون أن ينطقَ بكلمة، قالت بعد أن استدارت عائدة:

– أنا وأنتَ طريقان لن يلتقيَا مهما امتدَّا، بيننا حزنٌ وألمٌ وحياةٌ مليئةٌ بالخذلان.

ثُمَّ استدارت إليه وأردفت:

– لا تُرهِقْ نفسكَ بتجربةٍ هي خاسرةٌ قبل أن تبدأ، لا تلعب مع الأُنثى الخطأ.

ثُمَّ أطلقت ضحكةً عاليةً وقالت:

– أنا لستُ كوجد، وأنتَ لستَ مثل كنان.

كانت قويَّةً وجريئة، وهو لأوَّل مرَّةٍ يخشى امرأة، لقد استطاعت تعريته أمام نفسه، لم تكن فتاةً عاديَّة، وهذا ما سيجعل اللُّعبة أكثر إثارةً وتشويقاً، إن كان قد صمَّم على نيلها من قبل فاليوم قرَّر أنَّها لن تكون لسواه، وهو سيلعب معها حتَّى ينالها.

استمرَّت كوابيسها آناء اللَّيل، وفي قلب الظَّلام قد تربَّع على صدرها يُحاولُ سلب عينيها، تارةً تراه في رواقٍ مهجورٍ يعدو خلفها كُلَّما أسرعت أسرع خلفها، وتارةً تراه في عرض البحر يمدُّ يده إليها، وكُلَّما اقتربت لتنتشله سحبها معه إلى الأعماق، أراد أن يُقدِّمَها قُرباناً للسَّمكة الوحشيَّة لعلَّها ترأف بحاله وتُرجع عينيه له، وتارةً أُخرى تراه على الشَّاطئ حزيناً، وحين تهمُّ بالاقتراب منه يلتفت إليها فجأةً ويصرخ بها بهزيمةٍ ورعب، صار يخافها كما تخافه، حتَّى لوحاتها كانت عبارةً عن شبحٍ حزينٍ خائفٍ قد شاخ في شبابه بينما هي ظلَّت تكبر دونه، تُمزِّقُ ورقةً تليها أُخرى ثُمَّ أُخرى، وذات اللَّوحة تتكرَّر على الصَّفحات البيضاء، اللَّون الرَّمادي ذاته، تجاعيد الزَّمن ذاتها، البريق الأخضر المُطِلُّ من المحجرين الفارغين.

أصبحت تعيش في فوضى تأكل في غرفتها ولا تخرج منها إلَّا لماماً والنَّدم كاد يأكلها، كانت تجلس في الزَّاوية تقضم أظافرها العشرة، تعضُّ شفتها السُّفلى حتَّى تُدميها، وكُلَّما هربت منه أتاها جالساً على غصن شجرة المشمش يدقُّ زجاج نافذتها بنغماتٍ من ألم، وبمجرَّد أن تفتحَها يرسل لها إشارات خوفٍ

وهلع، فيخفق قلبها وتضطرب معدتها كُلَّما سمعت صوتاً مفزعاً من النَّافذة المفتوحة، تقسم بأغلظ الأيمان أنَّها أغلقتها قبل نومها.

كُلُّ مشهدٍ يحصل في غرفتها الملعونة يظلُّ يُطاردُها في ذاكرتها حتَّى يُرعبَها بحدثٍ آخر، لا أحد من عائلتها يمرُّ بها ويسألها عن أحوالها، رموها للخوف يتحكَّم بها ويشلُّ حركتها حتَّى أصبحت أسيرته، يحتجزها في غرفةٍ مظلمةٍ تأكلها الأفكار السَّلبيَّة ولا أحد يسعفها بكلمةٍ آمنة، نسيت هذه الكلمة منذ ذلك النَّهار المشؤوم.

أربعة أشهرٍ مرَّت على تلك الحادثة، وها هي السَّماء تستعدُّ لاستقبال أيَّام الشِّتاء، بدأت نسمات سيبتمبر العليلة تتلاعب بأوراق شجرة المشمش فتصدر عنها أنَّات استغاثة هو بطلها، لا مفرَّ منه؛ إذْ سمحت له أن يتلاعب ويعبث بها، فيضعفها كُلَّ يومٍ بذكراه، لقد أرادت مواجهته والوقوف في وجه مخاوفها لكنَّه قيَّدها بأوهامٍ اخترعها عقلها الباطن وأفكارها السَّلبيَّة، فاستسلمت للأمر ولم تُقاوم، لقد سيطر عليها وحاصرها من كُلِّ الجهات، فمشاعر الخوف حين يراها عدوُّكَ يتسلَّط عليك، وهذا ما حدث

لها ولم تُدركه، لقد كانت في دائرته وقبضة يده لا تفعل شيئاً سوى إخفاء وجهها بكلتا يديها.

على سريرها وتحته تراه، في لوحاتها، على المروحة السَّقفيَّة، في الزَّوايا، على غصن شجرة المشمش، في الشُّرفة، في نصوص كتبها، في خزانتها، وبين طيَّات ملابسها، لقد جاءها منتقماً وأصبح أشدَّ شراسةً من قبل، أراد أن تُكمِلَ حياتها على نحو يخلو من الشَّغف لتلحقَ به بسرعة، لم يُرِد لها أن تهنأَ بحياةٍ هجرها هو كُرمى لها.

كانت تُحبُّه وهي في أحلك أيَّامها الصَّعبة وأوقاتها الثَّقيلة؛ إذْ كان ملجأها، لا يرتاح إلَّا بعد أن يسردَ عليها ثقل أيَّامه فينتابها شعور الأمان، فهو المكان الوحيد الذي تهرب به من قسوة العالم، والآن تتوقُ للهرب من قسوته إلى العالم، لكنَّه وضعها في زجاجةٍ وأحكم إغلاقها، أين تهرب وكُلُّ الدُّروب توصلها إليه؟

وهكذا، وبعد صراعٍ مع الخوف والقلق عاشت أسيرته.

رمت حلا بنصائح أُمِّها عُرض الحائط، وقرَّرت خوض التَّجربة مع إبقاء قلبها آمناً، لن تندفع باتِّجاه الحُبِّ، وإنَّما ستسير إليه بخطواتٍ ثابتة، قرَّرت أن تُحكِّمُ عقلها قبل قلبها، فمازال الخوف يحكمها، ترى نفسها تتَّجه بإرادتها إلى طريقٍ تجهل نهايته، قلقةً من أن تكون محكومةً دائماً بالخيارات الأكثر ضرراً.

لم يتردَّد مالك عن بثِّ أشواقه في كُلِّ مرَّةٍ توشك على إعلان النِّهاية، فينتصر عليها ويعيدها إلى بدايات الحُبِّ محاولاً التَّشبُّث بها قدر الإمكان، بقدر رغبته في البقاء معها دون تركها، وعلى الرَّغم ممَّا يحدث في القرية من أحاديث غيبةٍ ونميمة.

نسي النَّاس قصَّة وجد وكنان، ولم يعد أحدٌ يذكر هذا الأخير بخيرٍ أو شرٍّ، اعتاد الجميع على صراخ وجد المتكرِّر في ليالي الصَّيف الحارَّة، بينما خشيت حلا أن تصبحَ أسطورةً كوجد وحديثاً دسماً في مجالسهم بعد أن نسوا الحادثة الأُولى، لن يغفرَ لها النَّاس وسيُذكِّرونها بعار أخيها، لذلك حاولت التَّملُّص من هذا الحُبِّ المُستنزف لروحها الذي زاد شرخ قلبها دون رحمة

ودون أن يمنحَها مالك الأمان بأفعاله، وإنَّما هي مُجرَّد كلمات هوى أطلقها من فمه، وهي مثقلةٌ بأرقٍ لا ينتهي، وحنينٍ لعناقٍ يدوم أربعة أسابيع، حنينٍ لأشياء ترغب بأن تحدث وتُفرح فؤادها، تركها تخوض حرباً غير متكافئة، حرباً خفيَّةً ما بين قلبها وعقلها، تُنشئ حواراتٍ لا تعرف مع من تقف، ليأتيَها ويمدَّها بالوعود والعهود والمواثيق، ويُقسِمَ أغلظَ الأيمان بأنَّها لن تكون لسواه، فتُصدِّقه مرغمة، تراه يُمسكُ يدها ليُحلِّقَ بها فوق السَّحاب، لم يُرفرف قلبها؛ لأنَّ السُّقوط من عُلوٍّ شاهقٍ سيكون مميتاً بالنِّسبة لها.

ملاك صغيرتنا الهادئة –الملاك الطَّاهر– هكذا يُناديها النَّاس، العائلة، الأقارب، الصَّديقات، لقد كانت مؤمنةً بأنَّ ثمَّة سعادةً تنتظرها في مكانٍ ما، لذلك ظلَّت هادئةً بينما الأيَّام تمرُّ دون أن يصرخَ قلبها مُطالباً بعناقٍ حارٍّ وحضنٍ دافئ، أحاديث صديقاتها عن الحُبِّ والغرام لا تنتهي، جميعهنَّ عاشقاتٌ مُتخفيَّاتٌ بستار اللَّيل، تسمعهنَّ وتتظاهر بأنَّ هذه الأمور عاديَّةٌ لكُلِّ فتاةٍ في مثل أعمارهنَّ، لكنَّ ما يؤلمها أنَّها في مثل عمرهنَّ ولم تُجرِّب مثل هذه الحكايات، ما عليها إلَّا أن تستمعَ لما يقال عن نجوى الحُبّ، أن تعيشَ في خيالها قصَّة حُبٍّ هي بطلتها، تهرب إلى النَّوم لتحلمَ بفارسها على عكس وجد التي كانت تهرب من النَّوم بسهادٍ طويلٍ كي لا يزورها طيف كنان في المنام.

وملاك هي التي عشقتِ النَّوم؛ لأنَّ الحزن والغضب يختفيان حين تستسلم لنعاسها، كانت تنام بعمقٍ مُستسلمةً له، وأحياناً تهرب إلى مكتبتها تقرأ ما تطاله يدها وتبدأ أحلام اليقظة ترفرف حولها، وبعدها تعود للنَّوم مُجدَّداً، ثُمَّ تستيقظ على واقعٍ يرفضها كما ترفضه، فتتقبَّله على مضض، واقعها مازال أفضل من

مستقبلٍ مجهول المعالم، ظلَّت تحاول محو القلق عن وجهها ليمضيَ يومها كسائر إخوته، ولا جديد في حكايتها سوى اجتماع صديقاتها بغياب وجد التي كانت لا تُفارق جلساتهنَّ، وتُثرثرُ حلا كثيراً، بينما تتحفَّظ عهد بأحاديث الصَّبابة، فتُحدِّثُهنَّ عن شقيقتها وما تلاقيه جرَّاء كوابيسها الملعونة، تستمع ملاك للجميع وتصمت، فلا حكاية حُبٍّ لها ترويها، وممنوعٌ عليها أن تتحدَّثَ عن ملك للغرباء.

مازالت عهد تهرب من علاء في كُلِّ مكان يلمحها فيه، يقترب فتبتعد، لم تكن تخاف الغرام لكنَّ ماضيها ليس رحيماً بها، تركت قذارتها بعد شهرين من بقائها هنا، حين رأت أنَّ حال الإنسان يتغيَّر في لحظةٍ وتنقلب آماله وأحلامه، استطاعت وجد دون أن تتركَ غرفتها وأن تُغيِّرَ شقيقتها للأفضل، استقامت وركنت الجانب المظلم من ماضيها، لكنَّه بين الفينة والأُخرى يُطِلُّ عليها فيسخرُ منها بأنَّها لن تُكوِّنَ أُسرةً وهي ذات ماضٍ سيِّئ، لذلك تعلَّلت بأسبابٍ تافهةٍ لتتجنَّبَ علاء، بالطَّبع سيسألها عن حياتها الماضية، وهي لن تستطيع إجابته وهي من كانت عابثةً بالحياة وكأنَّ لا رقيب لها.

الكُلُّ يتحدَّث عن عفَّتها، يظنُّون أنَّها تركت دراستها وعادت من تلقاء نفسها من أجل شقيقتها، هي التي لم تُدنِّسها الغربة على الإطلاق، بخلاف وجد التي كانت تعيش بينهم وتتقاسم وإيَّاهم الهواء ذاته فعلت ما فعلته وارتدت ثوب الضَّحيَّة، لو يعرفون ما حدث في غيابهم، فالأدوار تتبدَّل باستمرار، وليس كُلُّ ما نراه صحيحاً، ليس كُلُّ ما نُخفيه حقيقة، لا أحد يعرف ما حصل في الخفاء إلَّا الشَّخص ذاته.

لم تكن في تلك الأثناء مستعدَّةً بعد لتواجه ماضيها، كانت تحاول إخفاءه بشتَّى السُّبل، لم تُعاند من أجل العودة لجامعتها بقدر ما جعلها قرار يامن تستكين وتراجع أخطاء ماضيها، أدركت خطأها وفهمت أنَّ الحياة تنقلب عليها في لحظة، وفي جزءٍ من الثَّانية يلعب القدر لعبته فتصبح إمَّا ضحيَّةً مكلومةً أو ظالمةً قاسية.

إن اكتُشف أمرها ستُقاضى بتهمٍ كثيرة، سيبصق عليها الصِّغار قبل الكبار، سيتجنَّبها الأهالي، ستخسر عائلتها وصديقاتها، أقفلت باب قلبها بمئة مفتاحٍ خشية أن يُعاندَها هذا القلب ويهرولَ إلى ذاك الجار الذي يُجاورها في الحزن والألم.

ستتكرَّر اللَّحظات ذاتها مرَّةً أُخرى، وسيُعاندُ الطَّرفان ذاتيهما، ستُقابلُ قصَّتهما بالرَّفض، لن يسألَ أحدٌ إن سار علاء على نهج كنان، ولن يحزنَ أحدٌ إن سارت عهد على خطا وجد، لا يمكن أن يصبحَ بين العائلتين نسب، قد جاء الصِّغار ليلعبوا لعبة القدر ذاتها، منهم من أغرقته هذه اللُّعبة، ومنهم من أدخلته في دوَّامة الحيرة.

سترفض إشفاقاً على والدتها وعلى حزن شقيقتها، سترفض إجلالاً لدمع هيفاء التي لن تحتمل جرحاً جديداً وجرح كنان لم يندمل بعد.

ابتعدت عنه، قرَّرت أنَّها لن تدعه يقترب، حرمته متعة اللَّهو معها، فحاولت قدر الإمكان أن تتجنَّبَ مخالطته واللِّقاء به.

الطّريقة الوحيدة للانتصار على الخوف

أن تتعلّمَ كيف تُواجهه وجهاً لوجه

جلس منير والد وجد مع جابر والد مالك يقصُّ عليه تفاصيل معاناة ابنته، كان يدرك وزوجته معاناة طفلتهما دون أن يكونَ بإمكانهما فعل شيءٍ حيال الأمر، سكن الحزن ملامحه وهو يُحدِّثه بقلقٍ عن صعوبة حياتهم من بعد الحادثة، لقد مرَّ على الحادثة ستَّة أشهر، الحياة أكملت سيرها عند الجميع إلَّا عند وجد مازالت عالقةً في ذات اللَّحظة، قرَّر جابر التَّدخُّل لمساعدة صديقه في محنته، أن يخرجَها ممَّا هي فيه بأقلِّ ضررٍ وينتزعَها من كوابيسها.

والمعضلة الرَّئيسة أين سيراها إن كانت لا تغادر غرفتها، زاد التَّفكير عن حدِّه، وقف جابر يُفكِّرُ قليلاً حتَّى وصل إلى حلٍّ يرضي الأطراف كُلَّها، سيُقابلها عند الشَّاطئ، لتُواجِهَ مخاوفها التي انطلقت من هناك، لم يستطع أحدٌ إخراجها من صومعتها المعتكفة داخلها، ومع أنَّ يامن قد أزال الحواجز التي تمنعها من مغادرة البيت إلَّا أنَّها أصرَّت على البقاء داخله، لقد أرعبتها نظرات النِّسوة الباحثات في عينيها عنه، آلمها وجه هيفاء وهي تناظرها بحزنٍ وإشفاق، أفزعتها شوارع مشتها وإيَّاه ولم يعد له

مكانٌ على أرضها. مع كُلِّ هذه الهواجس جلست عائلتها تناقش فكرة خروجها إلى الشَّاطئ، لا أحد يستطيع سحبها من عالمٍ اختزنت نفسها داخله إلَّا عهد التي تبرَّعت لإتمام هذه المهمَّة، دخلت إليها تطالبها بالخروج من صومعتها، لم تكن وجد فتاةً عنيدة، بل كانت بسيطةً ومطيعة، لقد رغبت بالتَّخلُّص من هذه الهواجس، راقت لها فكرة عهد ولكنَّها خافت أن تقابل وجوه النَّاس المُكفهرَّة الغاضبة، ظلَّت تُلِحُّ عليها إلى أن وافقت، خرجت برفقتها إلى الشَّاطئ الذي شهد نوبات الألم والشَّقاء.

لم تجد نفسها إلَّا أمام بحرٍ لم تره منذ تلك الحادثة، شهورٌ عديدةٌ مرَّت والألم ذاته، وكأنَّ اللَّحظة أعادتها إلى عصرِ ذاك النَّهار. انسكبت دمعتها، بحثت عن شقيقتها، لم تجدها، تراجعت إلى الوراء مرعوبةً من أن يأتيَها كما وعدها ويسرقَ منها حبيبتيها، اصطدمت بجسدٍ صلب، التفتت إليه وهي تعتقد أنَّه سيكون طيفها مُتسوِّلاً الحُبَّ منها، لكنَّها وجدت العمَّ جابر والد صديقتها، ابتسم لها بودٍّ وربتَ على كتفها بمودَّةٍ لعلَّها تستريح فتهدأ ضربات قلبها، سحبها من يدها بهدوءٍ واقترب معها من مكانٍ تحفظه جيّداً، المكان ذاته الذي جلست فيه على

ركبتيها ترثيه وتبكيه، طلب منها العمُّ جابر أن يكونَ صديقاً لأحزانها، صمتت دون أن تُجيبَه، تفكيرها كان إن كان لقاؤهما مدبَّراً أم هو صدفةٌ من القدر! التفتت إليه تسأله عن السَّبب، فابتسم لبراءتها وقال:

- أُدركُ أنَّ في ذهنكِ عشرات الأسئلة، سأُجيبكِ عنها، فلا تتعجَّلي.

ظلَّت هادئةً ساكنة، طلب منها الجلوس على الرَّمل، وجلس بجوارها، أكمل كلامه:

- سأُواجه معكِ مخاوفك، ثقي بي يا وجد، لن أتركِكِ فريسة هذه الهواجس، وأنتِ لا تتركي نفسكِ الضَّعيفة تحت سلطة روحٍ هدفها الانتقام منك، لا شيءَ يؤذي الإنسان مثل الخوف، هو أقوى الطَّاقات السَّلبيَّة.
- لم أعد آبه به، رُبَّما تخدَّرتُ وأنا في طريقي إلى حتفي، أنتظره على حافَّة فراشي في كُلِّ ليلةٍ لعلَّه يزورني ويأخذني معه.

- إن كنتِ تعتقدين أنَّ الخوف يمنعكِ من الموت فأنتِ مخطئة، الخوف يمنعكِ من الحياة، فهو أسوأ صديقٍ للإنسان، صحتُكِ لا تُقدَّرُ بثمن فلا تُرهقيها بهذه الوساوس.
- لا أستطيع، حاولتُ مراراً وفشلت.
- أنتِ لم تفشلي، أنتِ جبنتِ، ما تخشينه سيتحقَّقُ في حالتكِ هذه، وستبقين تعيشين تحت وطأة الخوف.
- ما سبب إحضاري إلى هنا؟
- كي تواجهي نقطة ضعفكِ التي لا أساس لها، إنَّها من نسج خيالك، عقلكِ هو من يقوم بابتكار أحداثٍ لم تحصل في الواقع، إنَّه يرسم لكِ تصوُّراتٍ خارج حدود المنطق.
- لكنِّي أراه حقيقةً ماثلةً أمامي، في لوحاتي، وبين طيّات ملابسي، على فراشي، تحت وسادتي، على غصن شجرة المشمش، في الزَّوايا، في دفاتري وكتبي، في كوابيسي وأرقي، أراه آناء اللَّيل وأطراف النَّهار، يقتات على أحزاني ويرتوي من مخاوفي.

صرخت باكية، هي المرَّة الأُولى التي تجد فيها من يسمعها ويصغي إلى آلامها، جعلها تخرج من كبتها الذي أرهقها شهوراً لتصرخَ مُتألِّمةً راجيةً أن يرحمَ ضعفها، فصرخ بها كي تستعيدَ هدوءها:

- أنتِ مُدركةٌ أنَّها مواقف عبثيَّة تنتهي بعد مُدَّةٍ مُعيَّنة، وحدكِ من تقومين بتوليد الخوف في نفسك، لكنَّكِ آمنة، ليس هناك خطرٌ حقيقيٌّ يُهدِّدُ حياتك.
- كُلُّ ما أخبرتكَ به وأنتَ تنفي الخطر المُحدِّق بي، لن تُصدِّقني حتَّى تراني بمحجرين فارغين أتأوَّهُ ألماً.
- لن يحصلَ ما تُفكِّرين به، والدَّليل على ذلك أنَّكِ ماثلةٌ أمامي ولم ينقص منكِ شيء، مازلتِ كما أنتِ يا وجد.
- لن تفهمَ ما أمرُّ به؛ لأنَّكَ لستَ في مكاني، كما لن تكون.
- لا أحد بإمكانه أن يكونَ مكانك، يجب أن نعيشَ الحكاية نفسها ثُمَّ نحكم، ولكن في حكمي أنا لن أكونَ في خنوعك.

- لأنَّكَ لم تره بتاتاً وهو يمشي ويكبر أعواماً بخطواتٍ قصيرة، لم تره وهو يُصِرُّ دوماً على فقءِ عينيَّ ليتجمَّلَ بهما، أحياناً لا يعرفني إلَّا إذا سمع صوتي، يُطالبني بشيءٍ يخصُّه في جعبتي، يتَّهمني بسرقة حياته، ولذلك يطالبني بمنحه ما لا أستطيع العيش دونه.

ثُمَّ صرخت مردفة:

- أنتَ لن تفهم ما يعنيه الخوف الدَّائم من روحٍ تسكن غيرك، أحياناً أشعر وكأنَّه يسكنني، يخرج من جسدي ليؤذيني فيقتلني.
- هوِّني على نفسكِ الأمر يا وجد، أنتِ الآن بحاجةٍ إلى راحةٍ قصيرة، هذه فرصتكِ لتنقية أفكارك.
- وكيف السَّبيل إلى ذلك؟
- لا تدخلي غرفتك، اتركيها لعبثه، خُذي قسطاً كافياً من النَّوم.

أومأت برأسها، فأكمل هو قبل المغادرة:

- قبل أن ترحلي لنعقد اتِّفاقاً سرِّيَّاً لا يعرفه غيرنا.

- ما هو؟
- أن تأتي كُلَّ يومٍ في الخامسة مساءً.

إنَّه ذات الموعد الذي فارقها فيه ساكنُ روحها، همست بضعف:

- لمَ عند الخامسة بالتَّحديد؟
- لتواجهي أوَّل مخاوفكِ بشجاعة، ولتكوني أقوى من هذا العبث.

وبعد هذا الحديث أوصلها إلى دارها..

كم أشعرتها كلماته بالرَّاحة، دخلت غرفة أُختها، طلبت منها أن تنامَ معها، رحَّبت بها عهد مُتمنِّيةً أن تنسى وتكمل حياتها.

سعدت حلا بحُبِّ مالك لها، ابتسم هو الآخر لمنحها شعور الأمان، وأخيراً رأى ضحكاتها من أجل هذا الحُبِّ وتنازل قلبها له، كانت كنسمةٍ رطبةٍ في صيفٍ حارّ، في كُلِّ يومٍ يجلس بجوارها يُحدِّثها عن يومه وتُحدِّثه عن حياتها، قالت له بخوفٍ لم تستطع إخفاءه:

- أخشى خسارة حُبِّك.
- لمَ أشعر بأنَّكِ تُقلِّلين من قيمتك؟ أنتِ أكبر ما في الكون، لا تقلِّين أهميَّةً عن الأرض، وإن كانت هي تهبنا الحياة فأنتِ وهبتِ لحياتي سعادةً لن تزول.
- أعلمُ أنَّكَ لن تتركني ولن تنساني، أنا مؤمنةٌ بهذا الحُبّ، رُبَّما يأتي اليوم الذي تتناسى فيه عمداً هذا الغرام لكن لا يمكنكَ نسيان الشَّخص الذي منحه لك.
- لن أستطيع نسيانك، بتُ على يقينٍ بهذا الأمر، أذكركِ في أشدِّ حياتي زحاماً، في الأغاني القديمة، والأيَّام المُمطرة، في حقول القرية ومزارعها، وفي أشجار الجوز جميعها والورد الجوريِّ الأصفر، حينما أتأمَّلُ قلبي أُدركُ أنَّكِ ستبقين ساكنته إلى الأبد.

- إذن، سأحاول انتزاع الخوف من مكمنه.
- لا تخافي ولا تحزني، إن شعرتُ يوماً بأنَّني سبب حزنٍ ارتسم على وجنتيكِ سأغادر فوراً؛ لأنَّني حينها سأكون لا أستحقُّك.

مختلفٌ عن البقيَّة، لا يشبه أحداً، كأنَّه خرج من كتاب الأساطير والحكايات القديمة، حكاية الفارس المغوار المعجب بفتاةٍ فقيرة نجدها تحقَّقت وهي بطلتها، إنَّه يُشبهها إلى حدٍّ كبير، جاء مناسباً على مقاس قلبها، شعرت بأنَّها تنتمي إليه، نظرت إليه نظرةً خاطفةً فأراحتها عيناه المطمئنَّة، وهكذا عادت آمنةً إلى منزلها.

وقفت ونفضت الغبار عن ملابسها، ابتسم لها فبادلته بأُخرى:

- تبتسمين بطريقةٍ مُغلَّفةٍ بالحُبّ، يبقى أثر ابتسامتكِ مرسوماً في خيالي لا يُغادرني، أُحبُّكِ على الرَّغم من أنف كُلِّ ما يحول بيننا، ومن صعوبة الأسئلة التي تُركت دون إجابات.

كان هذا حاله في كُلِّ يومٍ عند المغرب وحين يعود من حقله وبيده فأسه، يُسمعها أحداث يومه الشَّاقِّ بتفاصيلها، يجلس وإيَّاها تحت شجرة الجوز، يريح رأسه على كتفها ويغمض عينيه فيرتاح كجنديٍّ عاد إلى وطنه بعد معركةٍ كان هو النَّاجي الوحيد بها، أخبرها مرَّاتٍ عدَّةً بغرامه، أحياناً كان يتلقَّى الصَّمت ردَّاً على كلامه، وأحياناً عبارات القلق والشَّكِّ ذاتها، وأحياناً أُخرى وقليلاً ما فعلتها حين تُعبِّرُ له عن أشواقها وحنينها بعباراتٍ مُغلَّفةٍ بالحُبّ.

كان يطيل النَّظر إلى وجهها، فيُريح نفسه بالبقاء بين ذراعيها وكأنَّها محطَّة الأمان الوحيدة في حياته، تمسح على شعره بحنان أُمٍّ صغيرة، فهي لا تعرف من قلوب الحُبِّ إلَّا قلبه، لم تحاول فهم شخصٍ سواه، لم تعرف إلى أين ستأخذها الحياة، كُلُّ ما كانت تعرفه أنَّها تُفضِّلُ المكوث معه على البقاء وحيدة، فتجد نفسها تنتظره وتتعمَّد الذَّهاب باكراً نحو بستانها لتحظى برؤيته والتَّحدُّث إليه؛ لأنَّه ببساطةٍ خلَّد حياته في حياتها، فتجده في كتاباتها وأحاديثها، في أحلامها وسهادها، في صباحاتها ولياليها الطَّويلة.

قبل أن يغادرَها التفت إليها قائلاً:

- حين يعبث القلق بكِ مُجدَّداً اتَّجهي نحوي، حين تُتعبكِ الحياة تعالي إليَّ وعانقيني، حين لا تجدين في الحياة قلباً يقبلكِ فأقبلي إليَّ وقبِّليني، وإن دارت الحياة بكِ والتفَّت حولك حتَّى تكاد تخنقكِ قفي في وسط الدَّرب وانتظريني، حين لا تجدين كتفاً يتَّسع لأحزانكِ أسقطيها على كتفي، وسيحتوي صدري جلَّ آلامك، سأبقى في مكاني بانتظارك، من أجلكِ سأُلغي قواعد وأعرافاً وتقاليد لا تعنيني.

غادرها مُخلِّفاً وراءه قلباً آمناً بعد أن لمح ابتسامةً صغيرةً تحرَّرت من عبء الخوف الملازم لها على الدَّوام، فهمت أخيراً معنى أن يستريحَ المرءُ بعد عناء أعوامٍ من التَّعب والألم.

دافئةٌ هي فكرة أن يتقبَّلكَ أحدهم بكُلِّ ما فيكَ من ندوبٍ وخدوشٍ وجروحٍ وعيوب، كُلَّما نظرتَ إلى عينيه تأكَّدتَ من أنَّ هناك مُتَّسعاً من الحُبِّ والجمال، وأنَّ المعجزات تتحقَّق، ومازالت في طور البدايات.

ركضت إلى ملاك تبثُّ إليها حكايات الغرام، تحدَّثت عنه وكأنَّه أعظم انتصاراتها ولم تهزمها الحياة يوماً، لم تعد ترغب من الحياة سوى دوام هذا الحُبّ، أرادته أبديَّاً لا تطويه الأيَّام، قالت بسعادةٍ وهي جالسة قرب ملاك:

- حين أنظر إلى عينيه فإنّي أتوه بهما، أشعر بأمانٍ مطلقٍ وكأنّي لم أُجرّبِ الخوف إطلاقاً.

نهضت من فورها ودارت حول نفسها مرَّاتٍ عدَّةً، وقالت ضاحكة:

- اكتشفتُ أنَّ لي قلباً ليست مهمَّته ضخَّ الدَّم فقط، وإنَّما يُحِبُّ ويُحَبُّ، قلباً يدقُّ بنغمات الحُبِّ، إنَّه شعورٌ عظيمٌ حين أجد فؤادي يستقيم مع الكُلِّ، وإليه يميل.

كانت ملاك سعيدةً لسعادة حلا، فهي تجاوزت موت كنان وارتسم الفرح على وجهها، قالت لها بسعادة:

- هنيئاً لكِ بهذا الحُبِّ، أنتِ تستحقّين أن تجدي من يقبلكِ بكُلِّ حالاتك.

- هل ستبقى السَّعادة معي أم ستصفعني الحياة مُجدَّداً؟ فكُلَّما أهدتني وردةً أتبعتها بصفعةٍ قاسية!
- القلق من المستقبل لصٌّ يسرق منكِ اللَّحظة التي تعيشينها.
- أحياناً يهزُّني الخوف بطريقةٍ مرعبة وكأنَّه يوقظني من غفلتي، فأجدني قد ابتعدتُ أميالاً عن مالك وانزويتُ خلف شجرة الجوز كي لا يراني حين يعود من حقله.
- شيئان وجب عليكِ الخلاص منهما وعدم التَّفكير بهما؛ الماضي وذكرياته، والمستقبل وأحلامه، فالماضي لم يعد يهمُّكِ طالما انتهى، وذاك لم يعرض بعد.

سكتت قليلاً، أرادت أن تعرفَ عن الحُبِّ أكثر، فسألت:

- ما هو الحُبُّ يا حلا؟
- الحُبُّ شعورٌ مبهرٌ يا ملاك، لا أظنُّكِ ستجرّبينه، سأُخبركِ عنه...

كانت كلماتها طعناتٍ سُدِّدت في قلب الأخيرة، حاولت تجاهل سطوة الكلمات؛ لأنَّها أدركت ذلك، لكنَّ الألم أن يُخبرها أحدهم

حقيقة أمرها وأنَّها عاجزةٌ عن الحُبِّ مثل قريناتها، أردفت حلا دون أن تُدركَ حجم خطئها بحقِّ رفيقتها:

- الحُبُّ يُحوِّلكِ إلى أُنثى سعيدة، برسالةٍ بسيطة أو كلمةٍ واحدةٍ تتحوَّلين من العدم إلى الوجود، من اللَّاحياة إلى الحياة، إنَّه يعيد ترتيب حياتك، ملامحك، ضحكتك، أحاديثك، يحيي شعور الرَّغبة في الحياة، الحُبُّ لا أن تشعري بوجوده جوارك، وإنَّما أن تشعري باليتم في غيابه مع أنَّ الكُلَّ حاضر.

أغمضت عينيها كأنَّها تعيش لحظات الهيام دون أن تعيرَ ملاك أيَّ مشاعر، ثُمَّ استأذنت وغادرت. حينها سمحت ملاك لتلك الدَّمعة بالانسكاب، تلتها دموع الألم حزناً على إعاقتها، انفطر قلبها على حالها، لم ترد أن يُغلِّفَه الألم دون أن يبادرَ لسقيه إنسان، ولكن من سيبادلها مشاعر الحُبِّ وهي كمرآةٍ مكسورةٍ لا تصلح للزِّينة؟! جرحها ظاهرٌ لا يرغب برؤيته أحد، وكما وصفتها والدتها بأنَّها عارٌ عليهم وخطيئةٌ كُبرى، هي وملك الوحيدتان اللَّتان تعيشان تفاصيل الحزن المرهقة ولا يهتمُّ لحزنهما أحد.

تلك السَّجينة في غرفتها لا يراها أحدٌ فيعرف أنَّ في هذا البيت فتاتان معاقتان، لا واحدة كما يعتقد الجميع.

اعتادت معالجة أحزانها بنفسها دون أن تبثَّ ألمها لأحد، كانت تستمتع بأحاديث الحُبِّ الصَّادرة من فم حلا، ولكن في هذه المرَّة اندفعت صديقتها بمشاعرها متناسيةً وضع ملاك، فأغرقتها بمشاعرَ وهميَّةٍ لن تلمسَها، وإن أخذتها لن تمنحَها لأحدٍ سويٍّ، ستموت كمداً وحزناً وهي مُحمَّلةٌ بمشاعرَ ثقيلةٍ لإنسان تجهله، لبطلٍ وهميٍّ لا وجود له، الحقيقيُّ لن يراها إلَّا فتاةً مشلولةً لا أمل فيها، رُبَّما يشفق عليها أحدهم ولكن لن يتزوَّجَها ولن يقعَ في غرامها.

اليومَ ضاقت ذرعاً بحديث حلا عن نجوى الحُبِّ الصَّادر عن مالك الذي يعاملها بجفاءٍ كأنَّها ليست شقيقته، يراها طفلةً صغيرةً لا تفهم مشاعر الحُبِّ الجيَّاشة، لن يدعَها تُجرِّب مثل هذا الحُبِّ، فيبتعد عنها مُرغَماً كي لا يُغرقها في بحور الحُبِّ عمداً دون منحها شخصاً صالحاً لهذا الحُبّ.

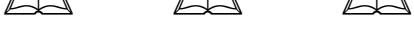

- هل في وسعي أن أختارَ أحلامي، وأن أسهدَ طويلاً كي أتجنَّبَ شقاء الكوابيس، فاللَّيل طويلٌ يكفيني فيه أن أحلمَ بكوابيسَ لا أُطيقها.

هكذا بدأت وجد حديثها وهي تنظر إلى نقطةٍ ما وسط البحر الهائج، حيث كان الجوُّ رطباً يميل إلى البرودة، ارتجفت أوصالها فخلع العمُّ جابر معطفه وألبسها إيَّاه، لم تشكره، كانت شاردةً في مشهدٍ يُعاد في ذاكرتها، نفث دُخان سيجارته، وقال لها بعد لحظاتٍ من الصَّمت:

- لا يستطيع الإنسان مطلقاً أن يتوقَّفَ عن الأحلام، ولكنَّ دماغ الإنسان هو من يختلق قصصاً وصوراً يختبرها قبل النَّوم، وتلك القصص إمَّا تكون ممتعةً أو مُحزنةً في ذاكرتنا، فنجدها إمَّا غريبةً أو مخيفة. ذاكرتكِ يا وجد هي من تستدعي كوابيسك، فتخرج من عقلكِ الباطن وتُترجم في صورٍ مرعبة.
- ما بين الواقع والأحلام خُلقت آلامي، وصرتُ أهرب من النَّوم إلى الواقع، ومن الواقع إلى النَّوم.

- الأحلام بوَّابةٌ إلى اللَّاوعي الخاصّ بنا، تُحفِّزكِ أوهامٌ لا تعترفين بها في وعيك، وتتجلَّى هذه الأوهام على شكل كوابيس.
- لكنَّ هذه الكوابيس تساعدني على فهم حقيقة ما جرى، حقيقة أودُّ الهروب منها فأجدني أصطدم بها رغماً عنِّي.
- وما هي هذه الحقيقة؟
- أنَّني خنتُ لهفة كنان، رُبَّما لو تماديتُ معه ومشيتُ إليه لما جرى ما جرى. رُبَّما كان يختبر حُبِّي وأنا خنتُ حُبَّاً لا أستحقُّه.
- أمازلتِ تُحمِّلين نفسكِ خطيئة ما حدث؟

أومأت برأسها، ثُمَّ خلعت عنها معطفه، أعطته له شاكرة، وعادت إلى البيت دون أن تُودِّعه.

اشتاقت إليه، فأرادت الانعزال عن العالم والاعتكاف في غرفتها كي تحاورَ طيفه ليل نهار، ليته يكفُّ عن طلبه لكان سهَّل عليها لقاءه.

ارتمت على سريرها، لم تُرد أن تعترفَ بما قاله العمُّ جابر، مازالت تُكذِّبُ الجميع، ولم تُردِ الاعتراف، فعقلها مازال يُصدِّق هذه الأوهام.

انطفأ النُّور لوحده، وما إن نظرت أمامها حتَّى رأته جالساً قبالتها على سريرها، ذُعِرَت منه وكادت أن تصرخَ لولا رؤيتها دموعه، كانت تنسكب من محجرين فارغين وكأنَّه أدرك أنَّها تسعى للخلاص منه، باغتها بسؤاله الحزين:

- هل كان التَّخلِّي عنِّي سهلاً؟
- كان عليَّ التَّخلِّي حتَّى أكسبَ نفسي، كان عليَّ العودة إليّ.
- لو مضيتِ معي لكُنَّا الآن معاً.
- كنتَ قد قرَّرت وانتهى الأمر.
- كنتُ سأعود من أجلك، أسعيدةٌ دوني؟
- وكيف أسعد وطيفكَ يُعاتبني في كُلِّ السَّاعات، لا أستطيع العيش دونكَ ولا أستطيع النَّجاة منك.
- تمسَّكتُ بكِ كأنَّكِ آخر ملجأٍ وكأنَّكِ الأمان الوحيد.
- كان عليَّ الهروب قبل إلقاء نفسي في بحرٍ لا نجاة منه.

صرخ في وجهها، فارتعشت أوصالها ودبَّ الرُّعبُ في جسدها:

- وهل أنتِ ناجيةٌ الآن؟ حياتكِ أهمُّ من البقاء معي؟
- كلاهما مرٌّ، الحياة دونكِ لا تُطاق، لا أستطيع تمزيق بقايا ذاكرتي، وبقايا أحاديث كتبتها لك، وبقايا قلبٍ لم ينبض إلَّا لك.
- كُنتُ أتمنَّى ألَّا أتحوَّلَ إلى منتقمٍ من امرأةٍ هواها قلبي.
- وأنا لم أتخيَّل أن تكونَ نهاية حُبِّنا وسط بحرٍ مُتلاطم الأمواج.
- النِّهاية هناك لم تكن هروباً بقدر ما كانت قتلاً ليس رحيماً.
- وها قد وصل انتقامكَ إلى ذروته، فمتى سترحمني من هذا الخوف السَّاكن في قلبي؟ لقد تحوَّلت بفضلكَ إلى رماد امرأةٍ نثرتني الرِّيحُ في أصقاع الأرض، خسارتكَ لم تُكسِبني نفسي بقدر ما خسرتها.

نظر إليها مُطوَّلاً، لم يسرق عينيها ككلِّ مرَّة، بل اختفى من أمامها ولم يترك إلَّا خيطاً من دخانٍ دلَّ على أثره، كان يعاتبها على ذنبٍ لو أيُّ أُخرى مكانها لكانت فعلت الشَّيءَ ذاته.

عادت بذاكرتها إلى الوراء؛ إذْ قال لها يوماً:

- كُلُّ واحدٍ منَّا لديه قصَّةٌ مؤلمةٌ في داخله، هناك من ترجمها على صفحة وجهه، وهناك من خبَّأها في داخله، وهذا أشدُّ ألماً؛ لأنَّ ذاك ستُشفقين على جراحه وتُساعدينه، أمَّا هذا ستدوسين عليه بلا رحمة.
- كُلُّ منَّا يرى الجانب المُوجَّه إليه، منَّا من يرى الجانب المُشرق، ومنَّا من يرى الجانب المُظلم، ومنَّا من يرى انعكاس حياته على ذاك الشَّخص.

ابتسم لها وقال:

- هذه هي الدُّنيا، الجميع يبحث عن شيءٍ ما فيها، وكُلُّهم في دائرةٍ يبحث عمَّا ينقصه.
- الحياة تسلب الجميع ما تُريدُ شئنا أم أبينا.

عادت إلى واقعها تستذكر كلام العمِّ جابر، كان كلامه مريحاً بالنِّسبة لها.

ومع الأيَّام ومقابلات العمِّ جابر صارت تنام دون أن تُخيفَها كوابيس اللَّيل، ومع أنَّها لم تُغادرها لكنَّها صارت معدودةً مقارنةً بالأيَّام السَّابقة.

وجدَته كما السَّابق جميلاً وعطوفاً، مدَّ يده إليها من وسط المحيط، ناداها باستعطافٍ أن ترحمَه وتُنقذَه ممَّا هو فيه، سبحت في اتِّجاهه، كانت المسافة ما بين قلبيهما قصيرةً وبعيدةً في آنٍ معاً، وصلت إليه أخيراً، أمسكت يده وبدأت بسحبه، تصبَّب العرق منها؛ إذ كان ثقيلاً، بدأت تنهج من التَّعب، صرخت أن يُساعدَها أحد، لكنَّ الصَّدى ابتلع صرخاتِها، وفجأةً نهض وأصبح أعلى منها بمراحل، حاوطها بجسده الكبير، نصفه الأسفل سمكةٌ وحشيَّةٌ ضخمةٌ ورأسه رأس عجوزٍ شابَ قبل أوانه، هذه المرَّة باغتها واقترب من عينيها، أراد أن يتذوَّقهما لا أن يتجمَّل بهما، صاحت وجد والدِّماء تتفجَّر من المقلتين، بينما ضحك ضحكة انتصار، لم يصرخ مثلها، بل طار وعيناها في يديه، ظلَّت تصرخ وتتحرَّكُ في فراشها، صراخها لم يُغادر حنجرتها، عائلتها مرَّت أمامها، ولم يلتفت لها أحد، اصطبغ البحر بلون دمائها وهي تناديهم ولا تعرف دربها، كانت تائهةً بلا عينين.

أفاقت برعشةٍ في جسدها، تحسَّست عينيها، فحمدت خالقها أنَّهما بمكانهما، عانقت نفسها بيديها وبكت كثيراً، نظرت إلى ما

حولها تتأمَّل أثاث غرفتها وأنَّها لم تُغادرها لكنَّ عيون الشَّرِّ كانت تُحدِّق بها، صرخاتٌ، ضحكاتٌ، استغاثاتٌ، عويل الرِّياح، حفيف شجرة المشمش، بكاءٌ ونحيب، الصَّخب قد وصل إلى أُذنيها من كُلِّ مكانٍ في غرفتها، بريقٌ أخضرُ يتأمَّل هيجانها، انهيارها، صراخها، بكاءها خوفها، هلعها، كثرت العيون المُحدقة بها، صارت لا ترى إلَّا عيوناً ولا تسمع إلَّا أصواتٍ صاخبةً مرعبة.

اقتربت والدتها ترقيها بآياتٍ من القرآن، أمَّا والدها وعهد ويامن ظلُّوا يراقبون ارتجافها وهي في حضن والدتها.

اقترب علاء من عهد ليستفهمَ سبب صراخ وجد المُتكرّر في اللَّيل، لكنَّها لم تُرِح باله بكلمةٍ واحدة، لم تُرِد أن تظلَّ أُختها حدثاً مهمَّاً في مجالس أهل القرية، أرادت لهم النِّسيان، ولكن في كُلِّ صرخةٍ لها في جوف اللَّيل تعيد اشتعال الأحاديث من جديد.

أرادوا أن يعرفوا أدقَّ التَّفاصيل، فهم يُحبُّون الغوص في حيوات الآخرين من خلال تصويب مجاهرهم على حيوات غيرهم، ومع ذلك يرفضون أن ينظرَ أحدٌ إلى حيواتهم.

ابتعدت عهد عن علاء ولم تجعله يقترب، بدأت تشعر بالميل له لكنَّها كانت تدرك أنَّ هذا الحُبَّ سيصحبه العار ولن يرتضيه أحد، علاقةٌ معلومة النِّهاية، والنِّهاية ستكون قريبةً جدَّاً. أشاحت نظرها عنه كي لا يقتربَ من فؤادها البتَّة، بينما ظلَّ كالصَّنم واقفاً يتأمَّل ملامحها الشَّاحبة، فبعد ليلة أمسٍ لم تنم، بل ظلَّت تُفكِّر بحال أُختها، أحياناً يذهب تفكيرها إلى علاء فتعود أُختها وتحتلُّ الجزء الأكبر من تفكيرها، قطع شرودها حين سألها:

- إلى متى ستبقين مغلقةً عينيكِ عمَّا حولك؟

باغتته بإجابتها حين قالت دون تفكير:

- إلى أن تغيبَ عن ناظري.

ابتسم لها، وقال:

- على العكس، أنا أفتح لكِ أبواباً مغلقة، وفرصةً واعدةً، وأحلاماً جميلة.
- لا أُريدُ فتح أبوابٍ أنا من أُغلقها.
- أنتِ تكذبين على نفسك، مازلتِ تُطيلين الوقوف عند الأبواب المغلقة.
- أنا جزءٌ من هذه العائلة، يُصيبني ما يُصيبها، ويُربكني ما يُربكها، لن أتعدَّى حدوداً قد شرَّعتها العائلة لي.

صفَّق بكفَّيه، وأطلق صفيراً عالياً، وبعدها قال:

- أعجبني جوابك، لكن هل أنتِ واثقةٌ من هذا الكلام؟
- ماذا تعني؟
- الأيَّام ستشرح بالتَّفاصيل ما يعنيه حديثنا هذا، ولكن قبل أن أُغادرَ عليكِ أن تفهمي أنَّ الوقوف في الطُّرق المسدودة لهو هدرُ سنين من عمرك دون فائدة.

تبَّاً له، ولكلماته التي أربكتها! كُلَّما حاولتِ الابتعاد عنه تجده قد اقترب بغموضه، لم يكن واضحاً معها وكأنَّه يلعب لعبته بقوانينه وسيكون الفائز فيها طالما هي لم تفهم بعد قوانينه، فالوضوح أعظمُ معروفٍ يمكن أن تُقدِّمَه لإنسان، وهو لم يزدها إلَّا حيرةً بغموضه، ستترك كُلَّ شيءٍ للأيَّام كما أوصاها، لن تُفتِّشَ في جيب الحياة عن معنى كلماته ولن تتعجَّلَ فهمه إطلاقاً.

تشابكت الأيدي ونظرت حلا إلى مالك، كان يُحدِّثها عن كنان وصداقتهما، هو لم يبغض علاء أو يامن ولكن لا يوجد أيُّ توافقٍ فكريٍّ بينه وبينهما، أمَّا كنان فكان كالأخ والرَّفيق.

في هذه القرية الصَّغيرة المُتربِّعة على تلَّةٍ تُشرف على البحر من علوٍّ نجد أنَّ الصَّداقة محدودة، وأنَّ الكلام فيها يسير مسرى النَّار في الهشيم، وأيُّ حدثٍ يحدث يُفجِّرُ نميمةً أو غيبةً لا تخمد إلَّا بحدثٍ أعظم.

جميع من في القرية أثرياء؛ إذْ يعمل أهلها جميعهم في الزِّراعة، بينما عائلة كنان كانت هي العائلة الفقيرة المنبوذة من أهل القرية، وبعد أن وقع منير بغرام هيفاء وغادرت الأخيرة بعد أن جاءها قرار الرَّفض من جميع الأطراف، الكلام نفسه يتردَّد في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ بأنَّ الثَّريَّ لا يتزوَّج إلَّا من طبقته، حاول قليلاً مع عائلته ولم يصل إلى حلٍّ يُرضيه، تزوَّج مرغماً بنادين وكان لا يطيق لمسها، لكنَّه احتملها وعاش معها مرغماً؛ لأنَّه لا ذنبَ لها في حربٍ مقامةٍ قبل أن تدخل عائلته، وهي احتملت ما لم يحتمله منير، كان عذابها مضاعفاً، غربةٌ ورجلٌ لم تعرفه من

قبل، كان هذا اختيار والدتها، فاكتمل هذا الزَّواج وكانت ثمرة هذا الزَّواج ستَّة أطفالٍ من العائلتين.

عادت بقايا امرأةٍ لا تُشبهها وعاد الحنين يشعل قلبين أصبحا عجوزين لكنَّهما استكانا، هو حافظ على مشاعر زوجته وتصرَّف كأنَّ عودتها لا تعنيه، وهي حافظت على كبريائها وكأنَّ الماضي انمحى أمامها، ولكن نسيا أنَّ البيت يُقابل البيت وحبُّ ابن الجيران سيظلُّ عنوان الحكايات المردَّدة على لسان الأُمَّهات، لتكمل وجد حكايتهما وتنتهي سريعاً، وليعود علاء ويُكمل عن كنان الحكاية ذاتها.

حين جاءت لحظة الحُبِّ الحاسمة لكلا الطَّرفين فُتحت الدفاتر القديمة، وعاد الحُبُّ يتراقص بجناحيه على صفحات الزَّمن، وما وُئِدَ في الماضي أشعل براكين الحاضر ولم تخمد إلَّا بموت كنان الذي أوقف الحرب قبل اشتعالها.

ظلَّت هيفاء تلوم نفسها في كُلِّ ليلة، ما كان عليها العودة وتعريض ابنها لحُبٍّ مرفوض، ونادين ندمت أيضاً على رفضها

هذا الحُبَّ وهي ترى ابنتها أضحت جسداً بلا روح، اختفى مرحها وضحكاتها من البيت ولم يعد يُسمع إلَّا صراخها.

لم يعرف أحدٌ أنَّ هناك من يريد إكمال الحكاية من أجل الحُبِّ، لم يعدِ الانتقام حليف علاء بقدر ما أعجبته اللُّعبة حتَّى أُغرِمَ بها، صار يضع قوانينه وحده بعيداً عن قوانين القرية ليفوز بها ويتحدَّى الجميع بقدرته على لمِّ شمل العائلتين، وإلغاء فكرة وقوع الفقير بحُبِّ الغنيَّة.

ظلَّ مالك يتحدَّث عن كرهه لوجد، لقد عدَّها السَّبب فيما حصل، لكنَّ حلا لم ترَ الأمر من منظوره، هي لم تتَّهمها كالآخرين، وإنَّما أشفقت عليها من صبوة العشق الذي مرَّت به، تُهمتها واضحة بأنَّها عاشقةٌ عانت من نجوى الحُبِّ، فالقلب لا حدودَ له ولا قيود، وحده من يتمرَّد على التَّقاليد والأعراف ليُحارب العقل فينتصر عليه، لكنَّ انتصاره كان منكَّهاً بنكهة الحزن.

جادلت حلا مالك في هذه النُّقطة كثيراً، فهي تختلف عنه، لم تكن تراها أُنثى أنانيَّةً، الكُلُّ مغرمٌ بالحياة، وإن حدث حريقٌ ما

فالجميع قد ينسى أحبَّاءَه وينقذ نفسه، تُهمتها أنَّها رفضت أن تُكمل معه السَّير إلى حتفها، حاولت إقناعه كي يعودَ معها لكنَّه أصرَّ على المضيّ قُدماً وكأنَّه ينتقم من جبنها وخوفها ومن عائلته لرفضهم زواجهما، أنهيا جدالهما العقيم كي لا يخسرا جوهر غرامهما، فصدمته بسؤالها:

- هل حُبُّنا سيكون يوماً عابراً؟ أم سيكون ماضياً وينتهي ونعيش على ذكراه؟

ابتسم بتهكُّمٍ وضمَّها إلى صدره، ثُمَّ همس جوار أُذنها:

- ستظلّين موجودةً في كُلِّ الأشياء من حولي، وحدكِ من تُشرقين في الفؤاد على الرَّغم من عتمة ما حولي.
- سأسير معكَ آمنةً مُطمئنَّةً إلى درب النِّهاية.
- النِّهاية معروفة، بيتٌ وزواجٌ وأطفال.

ابتهجت لهذا الكلام وابتسمت، فشعَّ الفرح في عينيها الصَّغيرتين وضحكا معاً، حاوطهما السُّرور وهو يُسمِّي لها أطفالهما، كان كغيثٍ مُحمَّلاً بالفرح بعد سنواتٍ عجاف من الحزن والتَّعب.

مع أنَّ دراساتٍ عديدةً قد أثبتت أنَّ من يحلمون بتجاربهم السَّلبيَّة التي مرُّوا بها في حياتهم تزيد قدرتهم على تقبُّل هذه التَّجارب وتجاوزها، بالإضافة إلى معالجة مشاعرهم عن طريق حفظ الذِّكريات التي تُؤسِّس لأحلامهم وتُعلِّمُهم مواجهة مخاوفهم، إلَّا أنَّ وجد قد ابتعدت عن هذا الأمر ابتعاداً كُلِّيَّاً؛ إذْ أعجبتها فكرة الغوص في أعماق الأحلام، وإن كانت كوابيس مخيفةً، فأجمل ما فيها هو استيقاظها، فتدرك أنَّها آمنةٌ في سريرها والخطر ما هو إلَّا خياليٌّ لا وجود له في واقعها.

وقف العمُّ جابر جانبها مستنداً بمرفقيه إلى سور الشُّرفة، كانت زيارته الأُولى لها في سجنها الذي حبست نفسها فيه مرَّةً أُخرى بعد لقائها الأخير بروح كنان، كانت تُحبُّ مجالسة العمِّ جابر، على الأقلِّ لم يُخرجها من صمتها عنوةً بل تركها حتَّى تُبدِّدَه، قالت دون أن تلتفتَ إليه:

- حين أستيقظ صباحاً لا أتذكَّر هذه الكوابيس التي توقظني من نومي، مع أنَّها تجعل العودة إلى النَّوم أكثر صعوبة.
- حدِّثيني عن حالتكِ عقب كُلِّ كابوسٍ يفزعك.

- أُصابُ بضيق تنفُّسٍ وكأنَّني على وشك الدُّخول بنوبة هلع، أتعرَّق بشدَّة، أشعر برهبةٍ هائلةٍ وكأنَّني مازلتُ في طور الحلم أعيش، فيسكن فيَّ هذا الكابوس لساعةٍ أو أكثر حتَّى أُدركَ أنِّي مازلتُ على سريري، غرفتي لم تعد آمنةً كما كنتُ أعتقد، الكُلُّ يهرب من واقعه إلى النَّوم، وأنا أهرب من النَّوم بسهادٍ طويلٍ يُؤرِّق حياتي.
- حاولي أن تُرتّبي جدول نومك، مارسي عادات النَّوم الصِّحي كتحديد جدول نومٍ منتظمٍ للحفاظ على استقرار نومك، ثُمَّ لمَ هجرتِ غرفة شقيقتك؟
- لم أستطعِ النَّوم فيها وكأنَّني أنام على أشواك، فهربتُ في منتصف اللَّيل لأُعانق طيفه الحزين.

سكت قليلاً، أشعل لفافة تبغ، وضعها في فمه، نفث دخان سيجارته، وبعدها قال:

- مارسي التَّأمُّل كرياضةٍ لطرد التَّوتُّر وترتيب أفكارك.
- كُلَّما تأمَّلتُ حياتي جلس قربي وحاربني بأسلحته.
- واجهيه، لا تهربي منه، كُلَّما ظهر عانقيه، عانقي الخوف كي ينهزم ويتلاشى، أنتِ تحتاجين وسادةً يغفو

عليها عقلك، يستكين ويمنحكِ لحظاتٍ من الهدنة. الأحلام تصبح أكثر خطورةً حين لا تجد منكِ سوى الاستسلام، فهذه الأحلام حين لا تجد أرضاً تتَّكئ عليها تتحوَّل إلى كوابيس.

- سأُحاول.
- تحاولين ماذا؟
- ألَّا أخاف، سأُعانقه كي يتلاشى.

ابتسم لها وغادرها، عادت إلى حامل لوحاتها، وضعت ورقةً ناصعة البياض، رسمته مُجدَّداً، أرادت أن تجلبه إلى غرفتها كي تحظى بدقائق الحُبِّ معه، كي تُعانقه فيعفو عن جرمها، انتهت من رسمتها، وكعادتها لم تدرِ لمَ ترسمه هكذا، شبحٌ هزيلٌ بلا عينين حزينٌ وخائف. هذا الشَّبح يخافها، ومع ذلك يرعبها، الخوف بينهما مشترك، هي تخاف أن يسرق منها عينيها، وهو يخاف أن تكمل حياتها دونه.

ارتجَّت الأضواء، اشتعلت وانطفأت مرَّاتٍ كثيرة، تحرَّكت الأشياء من مكانها، سقطت أدوات الزِّينة، مادت الأرض تحت قدميها واضطربت، تراقصت الجدران، وأصدرت شجرة المشمش

حفيفاً مؤلماً، أدركت أنَّ روحه قد جاءت، وقفت في الزَّاوية تتأمَّل لحظة اكتماله مع القمر، خرج من لوحتها حزيناً كما رسمته، اقتربت منه وعانقته فعانقت ذاتها وما وصلت إليه، تأمَّل خيبتها وقال:

- أصابعي رخوة، تسقط منِّي الأشياء دوماً، وتسقط من يدي كُلُّ الأمور التي أُريدها وتلك التي لا أُريدها، وكم أحزنني أنَّني أمشي إليكِ كُلَّ يومٍ ولم أصل إلى الآن.
- رُبَّما كنتَ تمشي في اتِّجاهٍ يُعاكس قلبك.
- ورُبَّما لأنَّ قلبكِ يبعد آلاف الأميال عن قلبي.

صرخت في وجهه:

- كيف أشرح لكَ أنِّي متعبةٌ منذ ذلك اليوم، من الأحلام، من وجوه النَّاس المعاتبة، من الملأ الغاضب، من خوفي، من قلَّة حيلتي، من الماضي والحاضر، من الغد وشجرة المشمش، من لوحاتي وسريري؟! كيف أروي لكَ تعبي من الحياة بأكملها؟!

- إنَّه مجرَّد تعبٍ ينتهي بانتهاء الأيَّام، أنتِ لم تخسري الحياة حتَّى تختبري الألم، مازلتِ تعيشين وكأنَّها خُلقت لك.
- ألم تُلاحظ ألمي وخوفي منكَ وانهياراتي وأنا هاربةٌ من بين ذراعيكَ كي لا أتوه في دوَّامةٍ يصعب الخروج منها.

ارتسمت ملامح الحزن على وجهه أكثرَ من ذي قبل، بينما استندَ منيرٌ إلى جدران غرفتها يستمع لهذا الحوار الذي كان من طرفٍ واحد، لم يرَ سواها في الغرفة، كان الحوار محتدماً، رآها تصرخ في وجه شخصٍ غير مرئيٍّ، كانت تتفاعل معه وتتمنَّى لو يسمح بعناقها دون أن تغوص في نفسها ولا تصل إليه.

اقترب والدها منها فارتمت في حضنه، في حين اختفى الآخر بعد أن رمقها بنظرة خذلانٍ كانت كافيةً لتنهار في حضن والدها، مسح والدها دموعها بإبهامه، نظرت إليه وقالت:

- عمق جرحي الآن هو ضريبة الهروب في تلك اللَّيلة.
- أيُّ شخصٍ كان مكانكِ سيفعل الأمر ذاته، أنتِ اخترتِ الحياة واختياركِ كان الصَّواب ولم يكن خطيئة، إنَّما

إصرارٌ على العيش على الرَّغم من كُلِّ المعوقات والتَّحدِّيات.

- مازالت الحادثة عالقةً في حلقي حدَّ الاختناق.
- لا تُرهقي نفسكِ وتُدخليها في متاهةٍ لا يمكنك تجاوزها، ثُمَّ انسيه مؤقَّتاً، فهنا ضيفةٌ تودُّ رؤيتك.

وقبل أن تتكلَّم نادى على صديقتها ملاك، ارتمت وجد في أحضان صديقتها بعد أن دلفت إلى غرفتها، أوَّل مرَّةٍ تزورها في غرفتها بعد الحادثة، مسحت ملاك على شعر رفيقتها، وقالت ببهجة:

- كم اشتقت لأيَّامنا الهانئة يا وجد، ابتهجي وافرحي، هذه الحياة قاسية، مليئةٌ بالأفاعي السَّامَّة والعقبات القاسية، هذا لا يعني أن نسجنَ أنفسنا ونبكيَ على اللَّبن المسكوب، علينا الاستمرار في العيش ومواجهة كُلِّ عقبةٍ تمرُّ أمامنا.

ابتعدت وجد عن ملاك وجلست على السَّرير، تنهَّدت وقالت:

- كُلَّما حاولتُ الوقوف على قدميَّ أجد الحياة قد بترتهما، يُطاردني شبحٌ كان فيما مضى يناديني بحُبِّ عمره.
- لا تنقادي له، ستشكرين نفسكِ لاحقاً على مقاومتكِ له، قابليه بكُلِّ ما تملكين من أسلحة رُبَّما تكون خطواتكِ القادمة صعبةً وتظنِّينها مستحيلة، وقد تكون ثقيلةً ومعالم الطَّريق غير واضحة، لكنَّها ليست أكثر صعوبةً من بقائكِ في مكانكِ حبيسة أفكارك، وبالتَّأكيد ليست أكثر صعوبةً من استسلامكِ المُخيِّب للآمال، تحدِّيه يا وجد، أرجوكِ، ولا تيأسي.

كانت كلماتها كبلسمٍ يُطيِّب الجراح، دافئةٌ هي ملاك وكلماتها أكثر حناناً منها، صمتت وجد وفكَّرت في كلام ملاك النَّابع من قلبها.

ستكون قويَّةً لأجل صديقتها وعائلتها، لأجل نفسها، فهل ستنجح في لعبة التَّحدِّي هذه؟ هي الطَّريق الوحيد للخلاص منه ومواجهة الخوف وجهاً لوجه.

ظلَّت عهد تلحُّ على العمِّ جابر كي يقنع يامن بالسماح لها بالعودة إلى جامعتها لاستئناف دراستها، أرادت الهرب من مكانٍ بات يخنقها والفرار من حُبٍّ يضعفها؛ إذْ بدأ يتوغَّل إلى قلبها، قيَّد روحها، لذلك نبَّهها عقلها إلى ضرورة الرَّحيل من هذا المكان بأقصى سرعة، استغلَّت زيارات العمِّ جابر لبيتهم وطلبت منه هذا الأمر مراراً وتكراراً حتَّى رضخ لإلحاحها المتزايد، فحدَّث يامن كثيراً بالأمر وألَّا يأخذها بذنب شقيقتها، فلم يتبقَّ لها إلَّا عامٌ واحدٌ وتنتهي دراستها، بعد إلحاحٍ شديدٍ وهدوءٍ من منير وافق يامن على طلب العمِّ جابر؛ إذْ كونه يُقدِّم للعائلة خدمةً كبيرةً بمساعدة ابنتهم للخروج من حالتها.

وها هي تقف في الحديقة شاردةً تنظر إلى منزله وبيدها حقيبتها، لقد رغبت بوداعه وبالمضيِّ بعيداً عنه قبل أن يراها فيقفز القلب من مكانه إليه، ولكن لسوء حظِّها وحسن حظِّه رآها واقفةً شاردة، اقترب منها وعيناه على الحقيبة، ظلَّ صامتاً يتأمَّل وجوم وجهها حتَّى بدَّد الصَّمت بقوله:

- إذا كان الهروب يريح قلبكِ فاهربي، لكنَّكِ ستبقين في حالة هروبٍ دائمٍ ولن تستريحي في أيِّ مكان.

- أخاف على قلبي أن يُلامسَه حُبٌّ حزين، لذا أهرب منه ومن بيئةٍ لا تُريد لنا إلَّا الشَّقاء.
- لمَ يجب عليكِ دائماً أن تعيشي حالة قلقٍ من شيءٍ رُبَّما لن يحدث؟ نحن غيرهم يا عهد، نحن لا نخافهم، لا تزرعي الخوف في قلبك ثُمَّ ترويه من قلقك، فقط استسلمي لهذا الحُبِّ وانعمي به.
- إنَّه حُبٌّ خاطئ، جاء في زمنٍ خاطئ، سأبتره قبل أن يكبر ويقصَّ جناحيَّ، حُبُّكَ سيُتعبني ويُرهقني، لا طاقة لي بالرَّكض خلف سرابٍ لا جود له، دعني أقصُّ أجنحة هذا الحُبِّ قبل أن يكبرَ ويؤلمنا، فلا أرى لهذا الحُبِّ إلَّا نهايةً مكلومة.
- وقلبي الذي بات يئِنُّ من غرامك، ما حلُّ معادلته؟
- الحلُّ لديك، لا أنكر هذا الحُبَّ؛ إذْ إنَّ قلبي قد خانني بعد أن أوصدتُ بابه بعشرات المفاتيح، أدركتُ حينها أنَّ بعض الخيانات لذيذةٌ ولطيفة، لكنِّي لا أستطيع إكمال حكايةٍ معلومة النِّهاية.

كُلَّما فرَّ قلبه إليها فرَّت منه، رأى فيها حبيبةً يرغب بها بعد أن ترك فكرة الانتقام جانباً، لكنَّها رأته أبعد الأشخاص، لا مناص من عشق ابنة الجيران، مع أنَّها كُلَّما أرادت الهرب منه اصطدمت بظلِّه.

- سأنتظرك.
- سيطول انتظارك، فالسَّفينة حين تُبحِرُ لا تعود إلى ذات الميناء.
- لكنَّها تعود في النِّهاية.
- لا تعود مُحمَّلةً بالأشخاص ذاتهم، لا تعود إلَّا بعد أن يمحوَ الزَّمن غبار الحنين. لا تنتظر؛ لأنَّكَ ستبقى محكوماً بالأمل وسأبقى مدينةً لكَ بانتظارٍ لا أرغب به، لن أكونَ لكَ مهما فعلت، ثُمَّ أنت لا تعرف عنِّي شيئاً، بيننا بحورٌ وحروبٌ ومعارك وهزائم وانكسارات، لم يكن بيننا حُبٌّ حتَّى نعيشَ في وهم انتظاره.

حملت حقيبتها وغادرت دون وداع، فالوداع خُلق لمن أراد العودة، أمَّا من لا يرغب بالعودة فلا وداع لديه، لقد أدركت أنَّ الحُبَّ فرصةٌ عظيمةٌ لن يُكرِّرَها الزَّمن، لكنَّها لم تُرد أن تظلمه

معها ولا أن تظلم نفسها بحُبٍّ ناقصٍ غير مكتمل الأركان، لم ترغب بالتَّعلُّق به وبعدها يعرف آنذاك ماضيها الذي لن يتقبَّله رجلٌ شرقيٌّ، فلزاماً عليها الرَّحيل قبل أن تبدأ حكايةٌ حزينةٌ تقضي على الجزء الحيّ داخلها.

كيف تستطيع الهرب من أشياء تركض في رأسها طوال اللَّيل؟ هذا اللَّيل الذي هو مصدر الهدوء والسَّكينة لدى النَّاس بات يُؤرّقها وينتزع منها أمانها، هذا الخوف المصاحب لها والذي سلبها الطُّمأنينة وملأَها رُعباً وهلعاً بات صديقها.

في كابوسها هذا كان سمكةً وحشيَّةً تطير في السَّماء، ثُمَّ خيَّمت على غرفتها فشعرت أنَّ السَّقف سيسجد محتضناً إيَّاها، كانت حجارة السَّقف تنهمر عليها وهي تنتحب في سواد ليلٍ بهيم، صوتها المختنق لم يُغادر حلقها، كانت تبكي بقهرٍ غياب أمانها حتَّى وجدته يخرج من إطار لوحتها مُحمَّلاً بخيباتٍ جمَّة، نظر إليها بقهر شهور ملأَها خوفاً ورُعباً، اقترب منها فابتعدت، أين تهرب والغرفة ضاقت بها إلَّا منه ومنها ومن حجارةٍ تنهمر على رأسيهما؟! حاصرها ما بين الجدار وبينه، تأمَّلها بانكسارٍ، ثُمَّ قال:

- لن تشعري بالأمان إطلاقاً، سيبقى الخوف ملازماً لكِ، وكُلَّما ابتسمت لكِ الدُّنيا سأنتزعها لأجعل النَّدم يأكل خلايا روحك، لن أدعكِ تُكملين حياتكِ بشغفٍ لم يعد

يأتيني، ستظلّين تائهةً دون عنوانٍ وكُلُّ المحطَّات التي تقصدينها ستكون خاطئة، لن تهربي منّي يا وجد.

ثُمَّ صرخ في وجهها، فانتفضت لصرخاته:

- لن تهربي إطلاقاً، لا مناص من طيفي، سيظلُّ يُحاصركِ ويحوم في كُلِّ الأجواء، وأنا لن أهدأَ إلَّا بعد أن آخذَ حبيبتيكِ منك.

ثُمَّ هدأ بعد أن انسكبَ الدَّمع من المجريين، وأكمل:

- لن آخذهما عنوةً بل سيكون القتل رحيماً حتَّى تمنحيهما عن طيب خاطر، كي تنجي من أهوالي. هذه الحياة رُبَّما كانت لكلينا لولا جبنكِ وغباؤك.

أمطرت الغرفة حجارةً كثيرةً حتَّى غرقت بها، استنجدت بالجميع، صرخت، بكت، توسَّلت، نادت، لم يسمعها أحد، كانت تختنق تحت الحجارة، لم يبقَ إلَّا رأسها، وبعدها سقط حجرٌ كبيرٌ فصرخت برُعبٍ اهتزَّ له أرجاء البيت.

هرعت والدتها كالعادة تقرأ عليها آياتٍ من القرآن وتسقيها شربة ماء، ارتعشت أوصالها وهي في حضن والدتها تستذكر كلماته قبل الحادثة بساعتين:

- لا أرغب بإكمال حياتي في بيئةٍ تجعلني في حالة قلقٍ دائم، أرغب بالذَّهاب إلى بيئةٍ مُستقرَّةٍ حيث أكمل حياتي معكِ بهدوءٍ وسكينة.
- إنَّنا نذبل أو نزهر تبعاً للأرض التي نُزرع بها.
- تعالي نسافر إلى البعيد.
- لا أستطيع، سنُحارب من أجل هذا الغرام.
- نُحارب من؟ جميع من في المعركة انتصروا، ووحدنا من هُزم، إنَّها معركةٌ غير متكافئة.
- لم نُهزم بعد، لم نمشِ خطوةً واحدةً في سبيل معركتنا، أنتَ من أردتَ إنجاز الأمر وكأنَّكَ في مهمَّةٍ عليكَ خوضها بانتصار، الحياة صبرٌ وعلينا التَّحلِّي ببعض البرود حتَّى نصل.
- أنتِ أجبن ممَّا توقَّعت.

- بل عقلانيَّة، أُحاربُ بمنطقٍ لأحصل على ما أُريدُ بأقلِّ الخسارات الممكنة، إن هربنا سيكون زواجنا عاراً على الجميع بدلاً من أن يُباركه الصَّغير والكبير، حارب معي ومن أجلي ولا تُحاربني من أجل هذا الحُبِّ.

كان أنانيَّاً لا يُفكِّر إلَّا بنفسه، هي ليست رجلاً مثله ينسى النَّاس فِعلته بعد أيَّامٍ قليلة، هي فتاةٌ إن غابت سيرتها العطرة لن ترى النَّاس إلَّا عارها سيبقى ملازماً لها ولأطفالها من بعدها.

تركتها والدتها تتخبَّط في ذكرياتها حتَّى رأته ماثلاً أمامها مُتربّعاً ما بين السَّماء والأرض، حاولت أن تتماسكَ كي لا تنهار، بدَّد الصَّمت حين قال بصوتٍ كفحيح الأفعى:

- تبتسمين لذكرياتٍ جمعتنا، في حين تهربين من لقاءٍ يجمعنا.
- لأنَّكَ لا تأتي إلَّا لشرٍّ في قلبك، تبثُّ في قلبي الخوف وتنزع الأمان منه.
- وهذا الشَّرُّ من زرعه؟ ألستِ السَّبب؟

- لقد رفضتُ فكرتكَ المجنونة ليس إلَّا، حاولتُ كثيراً ثنيكَ عن التَّقدُّم، لكنَّكَ لم تُطاوِع قلبي ودخلتَ إلى الأعماق وحدك، فلا تلم قلبي وهو في هواكَ مُتيَّم.
- إلى أيِّ مدىً وصل هواك؟ أوصل عنان السَّماء؟
- كان عشقاً صادقاً، وأردته أن يكتمل بزواجٍ مبارك.

كان مُخيفاً في الظَّلام، ومع ذلك تماسكت ولم تخف منه طالما أنَّه لن ينتزع منها عينيها، بل سينتظرها حتَّى تمنحهما له عن طيب خاطر، لكنَّها قرَّرت أن تبقى عنيدةً في هذا المجال وأن تتحدَّى لحظات الخوف وتتحدَّاه، اقتربت منه لتُعانقه مع أنَّها علمت علم اليقين أنَّها روحٌ شرِّيرةٌ جاءت لتُفسدَ حياتها، فعانقت ذاتها بعد أن اختفى وكأنَّه لم يكن.

- إنِّي خائفة.

كانت هذه الجملة القصيرة كفيلةً كي يُدركَ العمُّ جابر أنَّ وجد لم تتحسَّن بعد، وإنَّما ازدادت مخاوفها بشكلٍ مبالغٍ به مع أنَّها كانت قد تحسَّنت جزئيَّاً، وخاصَّةً بعد أن رآها تُحاول التَّقدُّم، كانت ستنجح في ذلك لولا كابوسها الأخير الذي أفقدها السَّيطرة على نفسها، ظلَّ واقفاً بجوارها يتأمَّلان أمواج البحر والصَّمتُ حليفهما، بدَّدته بقولها:

- إنَّه يدفعني للانتحار، يُريدني بأيِّ ثمن، أخشى إن زاد الأمر عن حدِّه أن أجنَّ أو أقتل نفسي.
- لنفكِّر بطريقةٍ أكثرَ إيجابيَّةٍ يا وجد.

قالها بعد أن نفثَ دخان سيجارته، فكَّر بما قالته وكيف سيُجنِّبها هذه الهلوسات التي لا صحَّة لها، استطرد قائلاً:

- هل جرَّبتِ فهم خوفك؟ أحياناً فهم خوفنا المُتكرِّر والتَّصريح عنه يُعطينا القوَّة للتَّغلُّب عليه.
- وكيف أفهمه؟

- بتحديد ما إذا كان خوفاً حقيقيَّاً؟ أم مخاوف غير عقلانيَّة وتهيُّئاتٍ لا أساس لها؟ أهذه الرُّوح حقيقةٌ أم مجرَّد روحٍ لا تستطيع فعل شيء؟
- أُحاول كثيراً فهم ما تقوله حين أراه ماثلاً أمامي أو جالساً على غصن شجرة المشمش، أو خارجاً من لوحاتي، ولكن أرهبه في كُلِّ كابوسٍ يأتيني، أشعر بأنَّني سأُصابُ بنوبة هلع.
- عاملي الخوف كعدوٍّ لدودٍ وجب عليكِ مقاومته وعدم الانصياع له، هو عدوٌّ شرسٌ لن يقبل بالهزيمة، فلنحتلْ عليه.
- كيف ذلك؟
- بأن تعتاديه.
- أعتاد الخوف! لكنَّكَ قلتَ إنَّه يجب عليَّ مقاومته وعدم الانصياع له.
- ولكن، أكملتُ بأنَّ علينا الاحتيال عليه، فلنعتدْ مخاوفنا المُتكرِّرة. حين تخلدين إلى النَّوم تذكَّري أنَّ ليلتكِ لن تمرَّ إلَّا بكوابيسَ سيِّئة، تلذَّذي بها وفكِّري بأنَّ هذا ليس

إلَّا كابوساً مزعجاً ولن يقضي على أيَّامكِ اللَّطيفة، قبل النَّوم فكّري بأيِّ شيءٍ ما عداه، حينها لن يزوركِ إطلاقاً.

- وهل سينجح الأمر؟
- أثقُ بأنَّكِ ستنجحين، عالجي نفسكِ بنفسكِ بتعرُّضكِ لمواقف الخوف المُتكرِّرة، هاجميه بدلاً من أن يُهاجمك، انتظريه وقابليه وأنتِ على يقينٍ بأنَّه وهمٌ لا أساس له، لا تُفكّري به إطلاقاً، ولا تُلقي له بالاً، اشغلي نفسكِ بأيِّ شيءٍ كي تُجنِّبي عقلكِ التَّفكير به، آن أوان أن تُحرّري نفسكِ من الخوف.

ابتسمت له وهي تتذكَّر كابوسها الأخير وهو جاثمٌ على صدرها، يداه تخنقانها بينما هي تصرخ وصوتها لا يغادر حنجرتها، وكلمةٌ واحدةٌ يُردِّدها: "آن أوان أن تأتيني".

تركها وحدها أمام البحر تُفكِّر بما حدث وديسمبر يغزل خيوط الحنين حولها، تذكَّرت كلماته في لحظة بردٍ كهذه اللَّحظة؛ إذْ كانا واقفين على الشَّاطئ والموج يتخبَّط أمامهما، قال:

- من لم يهزمه الشَّوق فاز براحةٍ أبديَّة.

- ومن لم يهزمه الحُبُّ بقي منتصراً.
- سيظلُّ شخصاً عادياً، يُقال عن الذي خاض حرباً وانتصر بها إنَّه منتصر، فأيُّ حربٍ فاز بها ذاك الذي لم يقد شيئاً؟! ما هو إلَّا إنسانٌ كسولٌ ليست لديه طاقةٌ لخوض معركة الحُبِّ فاختار أسهل ما في الحياة وهو البقاء بعيداً عن حكايات الغرام.
- ورُبَّما خاف على فؤاده من عذابات الهوى، فهرب من حُبٍّ سكن قلبه وأسكنه الألم، هرب إلى حيثُ تكون الرَّاحة أبديَّة، ذهب إليها مُرغماً كي لا يخوض معركةً خاسرة.

كانت دائماً تهزمه بمنطق الحُبِّ، وهو يعلن لها راية الاستسلام، يخسر النِّقاش مقابل أن يربحَ ابتسامتها.

اقتربت حلا من مالكٍ وابتسمت له، أصبح حُبُّه لها عادةً روتينيَّةً مُحبَّبةً إلى قلبه لا يملُّ من تكرارها، كعبادةٍ ضروريَّةٍ يُؤنّبه ضميره إذا ما تركها.

جلس بجانبها تحت ظلِّ شجرة الجوز، أسندت رأسها إلى كتفه، لقد أرادت أن تستريح من همومها، حدَّثته عن شوقها إلى كنان وعن صراخ وجد الذي قلَّ عمَّا كان، عن أُمِّها وتعبها، وعلاء الذي يحيا حياةً أُخرى غير عابئٍ لهما.

حنونةٌ هي حلا كقلوب الأُمَّهات، لكنَّها وحيدةٌ كقمرٍ في سماءٍ مُلبَّدةٍ بالغيوم، دافئةٌ كشمس الشِّتاء، هادئةٌ كسريرٍ في غرفةٍ مألوفة، قال لها:

- أنتِ نعمةٌ عظيمةٌ علَّمتني أنَّ حظِّي عظيم، في كُلِّ طريقٍ أمشيه أتمنَّى ألَّا تُفارقيني.

ابتسمت لكلمات الغزل وقالت:

- أيعني هذا أنَّكَ مليءٌ بي؟

أبعد رأسها عن كتفه، رفع ذقنها إليه، ثُمَّ قال:

- يكفي أن تنظري إلى عينيَّ لتعلمي كم أنا مليءٌ بك، أنتِ الشَّيء الدَّافئ في هذه الحياة الباردة.
- لا أُريد من الحياة شيئاً سوى أن أبقى لكَ حبيبة، أن تُحبَّني بهذه الطَّريقة الهادئة.
- سنظلُّ نشرق في حكايتنا، ولا نعرف الغروب.

قبَّلها من رأسها فأخفضته خجلاً، ثُمَّ وقفت وهربت إلى بيتها، تركته يبتسم لخجلها الواضح وضوح الشَّمس، بينما دلفت إلى بيتها الصَّغير، حاولت الهرب من والدتها كي لا تلمح احمرار وجنتيها، ولكن تأتي الرِّياح بما لا تشتهي السُّفن؛ إذْ باغتتها بوقوفها أمامها، ظلَّت لحظاتٍ تتأمَّل احمرار وجنتي طفلتها، وبعدها قالت بعتابٍ واضح:

- أمازلتِ مصرَّةً على أن تخسري نفسك؟

ثُمَّ صاحت:

- ليس لدي مقدرةٌ على خسارةٍ جديدة، لمَ لا تفهمين ذلك؟ ما الذي جلبته لنفسي حين قرَّرتُ العودة غير مصائبَ لا تنتهي.

اقتربت لتحضن والدتها، فابتعدت عنها.

- ما الذي تقولينه يا أُمَّاه؟
- لا تدَّعي كذباً أنَّ الهوى لم يطرق بابك، وأنَّكِ دخلته بكامل إرادتك، ولا تستطيعين الانسحاب الآن.

ثُمَّ وضعت يدها على قلب طفلتها قائلة:

- ليس لديكِ ما تخسرينه سوى هذا، فحافظي عليه، أُكرِّرها على مسمعكِ ألف مرَّة، حكايات ساندريلَّا لا تخصُّنا، الواقع لا يُشبه الحكايات، الثَّريُّ يستمتع مع الفقيرة والغانية والعاملة والخادمة، وفي النِّهاية يتزوَّج من طبقته.

غادرتها الأُمُّ خائفةً على طفلتها من حُبٍّ وُلِدَ مُشوَّهاً، ولا أحد يراه بهذه الصُّورة سواها؛ لأنَّ مرآة الحُبِّ عمياء، بينما ارتمت حلا على سريرها رافضةً ما قالته والدتها؛ إذْ رأت الهيام يُطِلُّ من عينيه، كان حنوناً ودافئاً معها، لا يمكن أن يتركها ويسلبها قلبها، ويغادر في لحظةٍ مُخلِّفاً خلفه نهايةً حزينة.

هذا الكابوس كان قصيراً، لقد سبَّب لها بعض الآلام والذِّكريات، انتفضت وجلست تتصبَّب عرقاً فتدفَّق الأدرينالين، ممَّا جعل قلبها ينبض بسرعةٍ هائلة، ازداد ضغط دمها وارتفع سكَّرها، ظلَّت تحاول تهدئة نفسها متذكِّرةً كلام العمّ جابر وتأهيله لها، فقرَّرت محاربة هذه الرُّوح، وأوَّل ما فعلته كان الوقوف أمام الحامل، بدأت برسم كابوسها على لوحةٍ بيضاء، تأمَّلت الخوف المرتسم على شفتيه، وكلماتُه تتردَّد في أُذنيها: "عندما لمحتُ عينيكِ قلتُ في داخلي: هذه هي التي سأُحاربُ من أجلها القبيلة، لكنِّي فُوجئت بكِ تُحاربينني من أجل القبيلة".

كانت ملامح الخوف المنبعثة من لوحتها تُقيِّدها بقيودٍ من حديدٍ ليرميها إلى السَّمكة الوحشيَّة، يسعى إلى تدميرها بكُلِّ السُّبل وهي جامدةٌ تُحاولُ فهم هذا الخوف المُتربِّص بها، أرادت أن تحيا الآن، فقد تعبت من هذه الدَّائرة، أرادتِ الخلاص من هذا الوهم المُسمَّى روح كنان.

ارتدت ثيابها وغادرت إلى البحر، كانت تعلم بأنَّ العمَّ جابر يتواجد هذه السَّاعة لحظة شروق الشَّمس هناك، ركضت إليه وعانقته، عانقها عناق الأب لطفلته، قصَّت عليه كابوسها،

استطاعت أن ترسمَه ببراعة، لم يظهر خارج إطار لوحتها، ولم تتحوَّلِ اللَّوحة إلى حقيقة، قصَّت عليه مشاعرها، أدركت في تلك اللَّحظات أنَّها مُجرَّد أوهامٍ خدعها عقلها بها ولا أساس لها من الصِّحة، نوت أن تُحاربه كي تعيش، كي ترى بسمة والديها وصديقاتها، قرَّرت المحاولة من أجل العمِّ جابر ومن أجل نفسها.

آن الأوان لتتحَّرر من هذا الخوف الكبير الذي سجنت نفسها به فقيَّدها بأوهام عقلها المريض.

الخوفُ لا يمنعكَ من الموت

الخوفُ يمنعكَ من الحياة

بدأ أهل القرية يتحدَّثون عن علاقةٍ ما بين العمّ جابر ووجد، الكُلُّ يحكي للكُلِّ، ازدادت حدَّة الأحاديث يوماً إثر يوم، هناك من يقول إنَّه رآهما رؤية العين وهو يُقبّلها على الشَّاطئ، وهناك من يتحدَّث عن أنَّهما كانا يسيران متشابكي الأيدي، منهم منصت ومنهم متحدِّث، وتدور الحكاية بيتاً تلوَ البيت، منهم من يوقفها عنده، ومنهم من يخرج ليُحدِّثَ بها غيره، الكُلُّ بات يتَّهمها بالمجون وبأنَّها نست حُبَّ حياتها كنان لتُوقع رجلاً كأبيها في شراكها، اتَّهموها بأنَّها هاويةٌ للعلاقات العابرة، وكثُرت الأحاديث ولم يُوقفها أحد، لم تصل إلى أصحاب العلاقة بل ظلَّت تحوم حول بيوتهم.

صار القرويُّون يتربَّصون بهما فيُراقبونهما لتنتشرَ حكاياتٌ أُخرى وأُخرى، لا أحد يلوم جابر ولا يتحدَّثون عنه بالسُّوء، إنَّما الكُلُّ يتحدَّث عنها بما ليس فيها، وُصِفت بأنَّها ماكرة، غانية، تصطاد الرَّجل تلوَ الآخر، كُلُّها صفاتٌ قبيحةٌ أُطلقت من أفواههم ولم تصل إلى أُذنيها.

جلست هيفاء بجوار حلا على الأريكة، سألتها إن كان ما يتمُّ تناقله صحيحاً أم لا؛ إذْ إنَّ الجارة جاءت في الصَّباح وحدَّثتها

عن كُلِّ ما يُقال في غيابهم، نفت حلا وجود علاقةٍ ما بين العمّ جابر ووجد، فالعلاقة بعيدةٌ عن المنطق، ولكنَّ والدتها صدَّقت هذه الشَّائعات بقولها:

- ألا يمكن أن تكون قد أغوته كما أغوت كنان من قبل؟
- كنان من صرَّح بحُبِّه لها قبل أن تبادره، ثُمَّ وجد ليست من هذا النَّوع، مازالت تعيش على ذكراه.
- كفاكِ دفاعاً عنها، هي السَّبب بخسارتنا لكنان.
- وجد لم تقتله ولم تدفعه لقتل نفسه، سأبقى أُدافع عنها طالما لم أرَ منها ما يُسيء، مازالت وجد تعيش الحزن في غرفتها وكأنَّه اختارها وليفةً له.

ظلَّت والدتها تتحدَّث بالسُّوء عن وجد وتلك تُدافع، هربت من مجادلةٍ عقيمةٍ لن تفضي بها إلى أيِّ طريق، أغلقت باب غرفتها خلفها، اقتربت من النَّافذة تتأمَّل قطرات المطر، شتاء ديسمبر كان رحيماً هذا العام، نظرت إلى الطَّريق الواسع وافتكرت مالك قلبها، ما الذي سيفعله إن علم بما يقال عن والده؟ هل سيثور ويغضب؟ أم سيترك الأمر وشأنه؟ خطَّت اسمه على النَّافذة وابتسمت وكأنَّ طيفه جاء إليها مُحمَّلاً بأطنانٍ من ودٍّ.

جلست النِّسوة في صدر البيت عند سعاد أُمِّ مالك وهنَّ يتحدَّثن في مواضيع تهمُّهنَّ كنساء حتَّى قطعت أحاديثهنَّ امرأةٌ غيورةٌ شرسة، تمقتُ سعاد وعائلتها، فتحدَّثت عن علاقة جابر بوجد، نفت سعاد هذا الكلام؛ إذْ إنَّ جابر هو حُبُّ قلبها الأوَّل ولا يمكنه إطفاء هذا الحُبِّ وينال واحدةً في عمر ابنته.

وضعت التَّبريرات والأعذار وأنَّه لا يراها سوى طفلةٍ وجب عليه إخراجها من الظُّلمات إلى النُّور، مصمصت الأُخرى شفتيها وعادت تُحدِّثها بأحاديثَ كثيرةٍ قد رُويت في غيابها، فالعلاقات المُحرَّمة لا تسير في النُّور وإنَّما في الظَّلام، دافعت امرأةٌ أُخرى عن وجد مُتَّهمةً جابر بأنَّه من غرَّر بطفلةٍ تائهةٍ تبحث عن النُّور في دربها، فمدَّت يدها إليه لانتشالها من أحزانها، وإذْ بيده يدٌ آثمة.

غضبت سعاد لكلام الأخيرة، انتفضت على النِّسوة وطردتهنَّ من عقر دارها، أمَّا باقي النِّسوة لم يُغادرن وإنَّما دافعنَ عن جابر مُتَّهماتٍ وجد بأنَّها عاهرة، هي من تسعى لتغويَه.

أشعلن النَّار في صدرها وكانت كالبركان الثَّائر بعد خروجهنَّ، اتَّجهت إلى صديقتها لعلَّها تُخمِدُ نيرانها وتُفنِّدُ ما قيل في حقِّ زوجها، لكنَّ النَّار لم تبرد، بل ثارت وهاجت حين صدقت صديقتها على كلام جيرانها، وخاصَّةً حين صدَّقت كلامهم بأنَّه دائم الزِّيارات إلى منزلها، وهناك من رآه خارجاً من بيتها مُتستِّراً بستار اللَّيل، لو كان الكلام يقتل لقتلها.

عادت إلى البيت وأصابع الاتِّهام تُشارُ إليها بأنَّها مقصِّرةٌ في حقِّ زوجها وبأنَّه أراد أن يُعيدَ شبابه مع امرأةٍ تصغره بربع قرن.

زاد الكلام أكثر، إشاعةٌ تتلوها إشاعة، وباتت الأحاديث مقتصرةً على هذه العلاقة الآثمة، الجميع يستهزئ بها ويسألها إن كانت نهايته ككنان.

حين استعادت وجد قوَّتها وبدأت تخرج لترى النَّاس صاروا ينظرون إليها كمُتَّهمةٍ وجب غسل عارها، لم تعرفِ السَّبب الذي جعل أهل القرية يحتقرونها هكذا، لم يُوجِّه أحدهم لها حديثاً، لكنَّ نظراتِهم كادت تقتلها، لم تعد تلمح العمَّ جابر واقفاً في ذات البقعة، لم يعد يزورها، لقد تخلَّى عنها كعائلتها وتركها وحدها

تُقاوم الجزءِ المُتبقِّي من مخاوفها، لقد وضعها في أوَّل الطَّريق وانسحب، والآن هي تائهةٌ بلا عنوان، قد وعدها أن يهزم الخوف معها، لكنَّه تركها دون أن يعلم بأنَّها هزمت جزءاً كبيراً من مخاوفها.

ذهبت إلى ملاك لتُحدِّثَها أو لتُحدِّثَ العمَّ جابر، لكنَّ سعاد طردتها من البيت ولم تُرحِّب بها، ضاقت بها السُّبل وهي تدرك أنَّه غير مرحَّبٍ بها عند حلا أيضاً، عادت إلى البيت وقطرات المطر تقطر منها، ارتمت على سريرها، لن تضعف، ستقاوم لآخر ذرَّةٍ من روحها.

عادت وحيدةً كما بدأت، فوالداها لم يفهما مخاوفها كما العمُّ جابر، إلى متى ستبقى في بؤرة الخوف يشلُّها ويُكوِّن حياتها، لم يكن جزءاً من حياتها بقدر ما هو الآن كُلُّ حياتها، إنَّه يُضعِفُ جسدها ويسحق روحها، لن يعرف قلبها طعم الفرح مُجدَّداً بعد أن ذاق طعم الخوف والألم.

أمَّا عن جابر فلم يكن مستمعاً لهذه الأقاويل العارية عن الصِّحة، فنَّد كُلَّ شيءٍ باعتبارها شائعاتٍ مغرضةً ولا أساس لها

من الصِّحة، لكنَّ الجميع جبناء، لا أحد يتحدَّث في الوجه، الجميع يتحدَّث من خلف ظهره، وفي وجهه تنتشر ابتساماتٌ عابثةٌ كاذبة، انشغل جابر بأرضه مع ابنه بعيداً عن ضجيج أهل القرية، وهذا ما دفعه لعدم زيارة مكانه المفضَّل، انشغل بأرضه عن زيارتها وأهل القرية يمرُّون من أمامه يصافحونه ويتحدَّثون في أُمورٍ شتَّى، يغادرونه وتبدأ أحاديث النَّميمة والغيبة.

لم تتغيَّر معاملة سعاد لجابر، أرادت أن تكون زوجةً حكيمةً في هذا المجال، فالأخطاء ليست في مصلحتها ومواجهته ستكون عبئاً ثقيلاً عليها، خافت أن يصدقَ ظنُّها، ولا يُفنِّدَ الأحاديث المنتشرة ولا يُفرّقَ بين الصَّحيح منها والخاطئ، ظلَّت تسير في الغرفة تُفكِّر في حلٍّ لهذه المعضلة بحيث لا يخسر أحدٌ والكُلُّ يخرج من القصَّة منتصراً، أرادت نهايةً حكيمةً تُلجِمُ بها ألسنة النَّاس، وقرَّرت أن تفعل ما يُخبرها به عقلها وإن كان قلبها رافضاً لهذه الفكرة إلَّا أنَّ الموضوع ليس فيه رفاهيَّة التَّفكير والأخذ بالقيل والقال.

هرعت إلى غرفة مالك، دخلتها بعد أن طرقت بابه، وجدته واقفاً أمام النَّافذة يُراقب سحب السَّماء المُكفهرَّة، ويُفكِّر بنجمته الصَّغيرة، قطعت والدته تفكيره الرُّومانسيَّ.

ظلَّت واقفةً للحظات، نظر إلى ارتباكها وقطرات العرق تتسلَّل منها، فما تطلبه ليس هيِّناً على الجميع، سألها مُتعجِّباً من ارتباكها وما الذي تُريدُه منه، أرادت أن تطلبَ ما تريده بجرأةٍ وهي تُدرك مسبقاً رفض مالك الأمر؛ لأنَّه أدرى النَّاس بعلاقة وجد وكنان وأنَّه من سابع المستحيلات أن يقرن اسمه باسمها.

- أُريدكَ أن تتزوَّج بوجد، ولا اعتراض مهما كانت الأسباب.

ظلَّ صامتاً لثوانٍ قليلةٍ كي يستوعبَ ما قالته قبل أن يصيح بها، إنَّه الهدوء ما قبل العاصفة:

- أأنتِ في كامل وعيكِ يا أُمَّاه؟

ارتمت على سريره وبكت وتوسَّلت ألَّا يرفض طلبها، جلس بجوارها يستنبئ عن النَّبأ العظيم الذي جعل والدته تبكي بهذه الحرقة، أخبرته بما يقال خلف ظهورهم، وتأكَّدت هي من

الأخبار، فالكلام إن انتشر بهذه السُّرعة لن يكون كذباً بقدر ما يكون جزءاً كبيراً من حقيقةٍ بشعة، طال صمته، حكَّ ذقنه، ثُمَّ بدَّد الصَّمت بقوله:

- هناك طريقةٌ أُخرى أبعدها عنه بذهابي إلى بيتهم وتهديدهم، ومن ثمَّ أطلب من والدي المثل.
- هل تعتقد بأنّي لم أُفكِّر في هكذا قرار، لكنِّي لن أجنيَ شيئاً سوى إبعادهم لمُدَّةٍ لا بأس بها، الأحاديث ستبقى منتشرةً والحكاية لن تنتهي، أنا أُريدُ أن أعدم أيَّ حكايةٍ تُحكى، أُريدهم أن يفهموا أنَّ الأحاديث عاريةٌ عن الصِّحة حين يرونكَ قد صرتَ زوجاً لها، فلا يمكن أن تُغرمَ بالأب وتتزوَّج بالابن، ثُمَّ إن حدَّثتهم أنتَ لن يهتمُّوا بل سيُسارعون لتزويجها له سرَّاً، إن فعلت ما طلبته سنمنع القيل والقال.
- يُستحال يا أُمِّي أن أقرن اسمي باسم وجد، أنت لا تعرفين ما دار بينها وبين كنان؟ كنان هو الأقرب إلى قلبي؛ إذْ كان دائم الحديث عنها، كيف سأتزوَّج بامرأةٍ كانت في حضن صديقي منذ أشهرٍ قليلة؟!

- طلِّقها فيما بعد، تزوَّجها لأشهرٍ محدودةٍ ثُمَّ سرِّحها، ما يهمُّني إبعادها عن حضن والدك، أتوسَّل إليكَ يا ولدي، اقبل سؤلي ولا تُحمِّلني ما لا طاقة لي به.

صرخ في وجهها وقال:

- أنتِ من تُحمِّليننني ما لا طاقة لي به، إنَّكِ تُحمِّليننني إثماً لا يمكن غفرانه.

ظلَّت تتوسَّل إليه وهو يرفض ما تتحدَّث به حتَّى أدمعت عيناها وبكت في حضنه كثيراً وهي ترجوه أن يُسارعَ في إعمار ديارهم بدلاً من هدمها، وجد التي سعت لانتحار كنان ستسعى لخراب هذا البيت، لكنَّه كان يرى ما لا تراه والدته، وجد في إحدى كفَّتي الميزان وكنان وحلا في الكفَّة الأُخرى، كنان سيبقى عالقاً في المنتصف بينهما، وحلا حُبُّ عمره وصفاء أيَّامه، أيمكن أن يقتلها بدمٍ بارد؟! كان الاختيار شاقَّاً عليه، تركته والدته يُفكِّر لبعض الوقت فقط، فلا يملكون رفاهيَّة الخيارات، وحده المُحاطُ بخياراتٍ عظيمةٍ وجميعها خاسرة، سيكون هو المهزوم الوحيد في هذه المهمَّة.

زاره سهادٌ لعين ودموع والدته تُؤرّق مضجعه، وبعدها تخيَّل دموع حلا، ومن ثمَّ نظرات اللَّوم من عيني كنان، إنَّها معركةٌ خاسرةٌ وحربٌ غير مضمونة النَّتائج.

وجد ما هي إلَّا لعنةٌ قد حلَّت على الأرض، كم تمنَّى لو أنَّها ماتت مع كنان، ظلَّ ساهراً طوال اللَّيل يُفكِّر في أسئلةٍ معقَّدة الإجابات.

تمشَّى في غرفته ويداه متشابكتان خلف ظهره، أيعقلُ أن تتغيَّر الحكاية بغمضة عين، وبدلاً من أن يسمع عنها كلام العشق يبادلها إيَّاه؟!

العشق! لا! إنَّها كلمةٌ مستحيلةٌ لامرأةٍ كوجد، هو لم يكن يراها سوى امرأةٍ مجنونةٍ هامت بحبيبٍ مات وجُنَّت من بعده، كان يسمع الحكايات عنها من أهالي القرية، ولم يُفكِّر يوماً بها كامرأة.

عاد بخياله إلى حلا البريئة الحسَّاسة، كيف ستفهم أمر هذه الحكاية المُعقَّدة التي دخلها مرغماً، وسيخرج منها بطلاً خاسراً منهزماً في سبيل الحُبّ؟

بعد أيَّامٍ قليلةٍ وافق مالك على هذه البيعة الخاسرة، لم يكن سعيداً لكنَّه سيرضي والدته فهي الأهمُّ لديه من جميع الأطراف، ضمَّته والدته إلى صدرها بحُبٍّ ترضى عنه وتدعو له بالبركة وصلاح الحال، فهو وحيدها الغالي؛ إذْ إنَّه السَّويُّ الوحيد من بين أبنائها، ذهبت إلى جابر وأخبرته عن رغبة ابنها بالزَّواج من وجد، انتفض جابر وامتعض رافضاً هذه الزِّيجة، صاح بها:

- أمِن كُلِّ البنات لم يجد إلَّا وجد؟
- وما بها وجد؟
- لا تنسي أنَّها لا تليق به، يكفيها قصَّة العشق التي عاشتها.
- وكنان توفَّاه الله، ولم يعد له وجودٌ منذ أشهر.
- والأقاويل التي تناقلها النَّاس عنها؟ كانت في أحضانه، نحن لا نعلم إن حدثت بينهما علاقةٌ كاملةٌ أم لا.
- اتَّقِ الله يا رجل، ستكون مسؤولاً عن كلامكَ هذا أمام الله.
- أنا أتحدَّث بما سمعتُ عنها، ثُمَّ هاتِ ابنكِ لأستفهم منه حقيقة الأمر.

جاء مالك وامتثل لأمر أبيه، كان يقف قبالة والده كالطِّفل المذنب، أجاب والده بعد أن استمع إلى سؤاله:

- إنَّها أمانة كنان، ولن أتركها لسواي.
- أمانته؟ أم حبيبته؟
- ستغدو زوجتي، فلا تتحدَّث عنها إلَّا بما يسرُّني.
- وحلا؟ ماذا أنت فاعلٌ بها؟

بُهِتَ من معرفة والده بحكايته مع حلا.

- ها أنتَ متتبِّعٌ جيِّد، ثُمَّ إنَّ حلا كانت صديقةً لطيفةً لا غير.

ضحك والده منه ساخراً، فهو يعرف الحكاية، لكنَّه أراد العودة إلى محور الحديث، فسأله:

- أأنتَ جادٌّ في طلبكَ هذا؟
- ولمَ أنتَ معترض؟

صاح والده:

- لأنَّها لا تناسبك، لا هي ولا حلا، الاثنتان لا تُناسبانك، هذه فتاةٌ سمعتها السَّيِّئة تسبق خطواتها، وتلك فقيرةٌ منعدمة الحظِّ هي وعائلتها.
- إذن، سأختار وجد، وأتمنَّى أن تباركَ هذا الزَّواج.

كانت والدته تستمع لنقاشهما المحتدم وهي ترى معارضة جابر لهذا الزَّواج، معتقدةً أنَّه مغرمٌ بها ويريدها عروساً له وإن كان على سبيل الخوض في عرضها، دافعت هي عن هذا الزَّواج

ببسالة أُمٍّ تريد حماية بيتها من خطرٍ يتهدَّده ومن خرابٍ سيطاله، ظلَّ الجميع على هذه الحالة ما بين مُؤيّدٍ ومعارض، وملاك تستمع لجميع الأطراف وهي صامتةٌ ومدركةٌ أنَّ هذا الزَّواج سينهي أطرافاً بريئة، الجميع سيكون من ضحاياه، ولن ينجو منه أحد.

وافق جابر على مضضٍ ممَّا أدخل السُّرور إلى قلب زوجته، بينما امتعض مالك وانقبض فؤاده.

طالت زيارتهم في بيت منير، وهم يطلبون يد وجد لنجلهم الوحيد، رحَّب يامن بطلبهم وأثنى على مالك كثيراً، ألغى وجود والده وبدأ يُخطِّط وكأنَّ الأمر محسومٌ قبل مجيئهم، ظلَّ منير صامتاً يُتابع حديث يامن دون أن يلوي على شيء، أرادها أن تكمل حياتها وألا تستسلم لحياةٍ ماضيةٍ حتَّى والدتها سعدت بطلبهم الذي اعتبرته غريباً بعض الشَّيء.

خرجت عائلة جابر بعد أن وافق الجميع على عقد قرانٍ بسيطٍ دون زفافٍ بسب حالة وجد غير المُستقرَّة، لم يعترض أحدٌ من عائلتها وكأنَّها عارٌ وجب عليهم الخلاص منه.

حين استمعت إلى والدتها وهي تقصُّ عليها ما حصل في هذه الجلسة انتفض قلبها وارتجفت أوصالها، صرخت مُصرّحةً بأنَّها لا ترغب بهذا الزَّواج إطلاقاً، جلست والدتها بجوارها على السَّرير تقنعها بأنَّه زواجٌ مباركٌ ولن تجد أفضل منه، ستسعد به ولن تعيش تعاستها وحيدة، عن أيّ سعادةٍ تتحدَّث وهي ستخون كنان للمرَّة الثَّانية، رفضت الأمر بشدَّةٍ حتَّى أتاها صوت يامن الغاضب وهو يُهدِّد ويتوعَّد إن لم ترضخ لهذا الزَّواج سيقتلها، فيكفيهم الآن ما فعلته، لن تظلَّ العمر بأكمله دون زواج، انسكبت دموعها كالشَّلَّال، أمسكت يد والدتها تُقبّلها أن ترفض هذا الزَّواج، ركضت إلى يامن تتوسَّل إليه أن يعفوَ عنها، لن تصرخ في اللَّيل، ستكون كما يرغبون، ولكن لا تريد الزَّواج، ستعيش على ذكرى كنان، توسَّلت لوالدها، رفض توسُّلاتها مُعلِّلاً بأنَّ هذا الأمر لمصلحتها.

منذُ تلك اللَّيلة المشؤومة لم يزرها كنان، هجرها وكأنَّه يعاقبها على خيانتها، فتحت النَّافذة ليلاً تشتمُّ نسيم الشِّتاء وهي تُودِّع أواخر العام من ديسمبر والسَّحب تتسابق في السَّماء السَّوداء، تأمَّلت شجرة المشمش وأوراقها تتمايل في نشوةٍ وحبور، أغلقت النَّافذة وفتحت باب الشُّرفة علَّها تراه، لكنَّها كانت هادئةً ساكنةً لا روح فيها ولا حياة، نظرت مطوَّلاً إلى منزل كنان المُغيَّب عن أهل القرية وكأنَّ هذا البيت البسيط لا حياة فيه، دخلت غرفتها بعد أن أغلقت باب الشُّرفة ورسمته في لوحاتٍ عدَّة، ومع ذلك لم يأتِها، حاولت أن تنام ليزورها في اللَّيل الطَّويل، لكنَّ الأرق بات ملازماً لها ولم تنم إلَّا في الصَّباح الباكر.

حاولت الخروج لعلَّها تلتقي بالعمِّ جابر وتعاتبه على إقدامه على فعلته، لكنَّ يامن منعها بالقوَّة خوفاً عليها من الهروب.

ظلَّت حبيسة غرفتها حتَّى جاءها العمُّ جابر في عصر يومٍ جديد، اقترب منها، طالعته بعتابٍ لم يُخفِ عنه هذا الألم الظَّاهر على صفحة وجهها، قال جملةً صغيرة:

- رُبَّما هذه البداية التي تفرِّين منها هي نجاتكِ من هذه المخاوف، فلا يقهر الخوف إلَّا حُبٌّ جديد.
- ومن قال لكَ إنّي راغبةٌ في هذا الحُبِّ.
- أحياناً ما نرفضه هو الصَّحيح، وما نهرب إليه هو الخطأ، حاولي أن تُعوِّدي ذاتكِ على حياتكِ الجديدة.
- كنان لن يتركني، إنَّه مُصِرٌّ على إقصاء سعادتي.

صاح بها:

- كنان مات! مضى على وفاته سبعة أشهر! افهمي يا وجد، هوسكِ به من جعله يُقيِّدكِ بأوهامٍ يخترعها عقلكِ كُلَّ حين، ما هو إلَّا وهمٌ خياليٌّ يبتدعه خيالكِ لا وجود له.
- تقول هذا لأنَّكَ لم تُجرِّب ما أعانيه، لا تتكلَّم وأنتَ بعيدٌ عن هذا الخوف، التجأتُ إليكَ لتُساعدني على فهم مخاوفي والتَّخلُّص منها، لا لتوريطي في مشكلةٍ لا أستطيع الخلاص منها.

- لا تُفكِّري في أشياء رُبَّما لن تحصل، الماضي رحل بكُلِّ ما فيه ولم يعد لكِ شأنٌ به، والمستقبل لا نعرف خباياه، فلا تشغلي بالكِ به.

كيف يُفهمها أنَّه رافضٌ لهذا الزَّواج، هو نعم أراد مساعدتها، لكنَّه شأن أيِّ رجلٍ في القرية، حين يُريد اختيار زوجةٍ لابنه يختارها فتاةً صالحةً لم تعرفِ الحُبَّ بعد.

مرَّت أيَّامٌ أُخرى وجاء يناير بثلوجه وبرودة طقسه، تمَّ عقد القران وهي حبيسة غرفتها، وافقت بجسدٍ لا روح فيه وكأنَّها تُساق إلى حتفها، هذه الحياة لن تُسعدها إطلاقاً، بل ستشقيها وتُؤلمها.

وقفت حلا أمام عتبة دارها تستمع إلى الزَّغاريد الصَّادرة من هذا البيت دون أن تعرف السَّبب، أيعقل أن تزوره الفرحة بعد أشهرٍ سبعةٍ من الحادثة، وقفت والدتها بجوارها قائلة:

- الكُلُّ في هذه الحياة يمضي بدوره ويُكمل مهمَّته، والحياة لا تقف إلَّا على ما خسرناه.
- ما الذي يحصل لديهم؟

- الأخبار سريعة الانتشار هنا، غداً يأتينا الخبر السَّعيد.
- لا يمكن أن تُكملَ وجد حياتها دون كنان، فهي وصلت إلى درجة الهوس بغرامه.

ذهب مالك ووجد وعائلته إلى منزلهم بعد أن جهَّزت والدتها حقيبتها وكأنَّها فتاةٌ معيبة، حتَّى لم تحصل على ثيابٍ تليق بها كأيِّ عروس، ولا ذهبٍ يليق بها.

انتشرت الأخبار الجديدة التي ألغتِ الأخبار القديمة، وصار الحديث ينتقل بيتاً تلوَ الآخر بعد أن أخبرت سعاد جارتها النَّمَّامة لينتشر في غضون دقائقَ معدودة.

دخل علاء منزله وجلس بجوار والدته على الأريكة، قال لها بعد أن خلع أحد جاربيه:

- أتدرين من تزوَّج الآن؟

صاحت حلا بفرح:

- وجد، قد سمعنا أصوات الزَّغاريد تصدح من بيتهم.
- وهل تدرين من تزوَّجت؟

نظرت إليه مستفهمة، فألقى قنبلته في وجهها دون أن يعرف ما في قلبها.

- مالك.

جحظت عيناها من هول الخبر، وضعت والدتها الفستان الذي تحيكه جانباً قائلة:

- أحقَّاً ما تقول؟
- لمَ تفاجأتما؟
- لأنَّ مالك صديق كنان، فكيف حصل هذا الزَّواج؟
- لقد أخبر الجميع بأنَّ وجد أمانة كنان لديه.

انتفضت حلا مكانها مدِّعيةً النُّعاس، ارتمت على سريرها تبكي قهر الحُبِّ وعذابه، دخلت والدتها إليها وأخذتها في حضنها، لن تُعاتبها على تسليم قلبها فهي قد سلَّمت قلبها من قبل وعانت هذا العذاب، لقد أدركت أنَّ ابنتها غدت أسيرة قلبٍ اكتوى بلهيب الحُبِّ، صاحت حلا:

- كان خوفي هو الأمان يا أُمَّاه، كنتُ في أمانٍ والخوف يسكنني، حتَّى انتزع منِّي هذا الخوف بعد محاولاتٍ عديدة، غدر بي دون أن يباليَ بقلبٍ كسره، ليتني تمسَّكتُ بالخوف لكان قلبي رحيماً بي الآن.
- سلِّمي أمركِ لله يا ابنتي، لا تعرفين ما هي نيَّته.
- وجد انتصرت عليَّ مرَّتين، مرَّةً حين سلبت منِّي روح كنان، وقضت عليَّ هذه المرَّة بسرقة مالك منِّي.
- كفاكِ جنوناً، الرَّجل العاقل لا يُسرق، ثُمَّ تتحدَّثين وكأنَّها أكبر الهموم، لا تبكي وغيركِ سعيدٌ به.
- ليس قلبكِ يا أُمَّاه، إنَّه قلبي الذي طُعِنَ بخنجر الغدر.
- انظري إلى نفسك، أنتِ تستحقِّين الحُبَّ والرَّحمة واللُّطف، تستحقِّين العيش دون خوفٍ أو قلق.

- كنتُ حين أنظر إليه أرى في ملامحه جميع أحلامي المُخبَّأة سرَّاً عن الجميع.
- لن تمنحكِ الحياة أكثر ممَّا كُتب لك، ولن يمنع عنكِ أحدٌ ما كُتب عليك، فتصالحي مع هذا الابتلاء واهدأي.
- الكلام سهل لكنَّ الحقيقة صعبةٌ للغاية، على الأقلِّ ليس الآن.
- حاولي أن تتصالحي مع ألمكِ كي لا يمضي بكِ العمر دون أن تشعري بالأشياء الجميلة.
- إنِّي يا أُمَّاه بحاجةٍ إلى وسادةٍ أغفو عليها فيستكين عقلي، ففي داخله حربٌ لا تهدأ، أُريدها أن تمنحني لحظاتٍ من الهدنة لأُكمل الطَّريق.
- انهضي واغسلي وجهكِ الآن لتُواجهيه غداً بدل النَّحيب على ما فات، تعاملي مع الحياة على أنَّها دار تعاسة وليس للسَّلام النَّفسيّ مكان، ليس فيها طمأنينة، هي مُجرَّد حياة تتبدَّل اللَّحظات وتتغيَّر الأحوال.
- من المستحيل أن تبتسمَ الحياة لي مُجدَّداً.

– ستمرُّ عليكِ أيَّامٌ تبتسمين فيها كثيراً، وأيَّامٌ ستذيقكِ الويلات، وفي كُلِّ حالاتها ستمضي.

ظلَّت تلعب في شعر ابنتها حتَّى غفت، أطفأت النُّور وتركتها وغادرت إلى غرفتها متألِّمة القلب على أطفالها، ليتها لم تعد إلى هنا، لقد جاءت تعلن انتصارها على منير وأنَّ لديه مثله ثلاثة أبناء، لم تنتظره مكانها بل أكملت حياتها، لكنَّ القدر كان له رأيٌ آخر، سلبت الحياة منها واحداً وعذَّبت قلب الاثنين.

دخل مالك ووجد غرفتهما، ابتعدت عنه، نظر إليها يتأمَّل الحزن السَّاكن على صفحة وجهها، جلس على السَّرير، خلع عنه معطفه، وضع رأسه بين يديه وأخفضه، ثُمَّ نظر إليها وضحك بصوتٍ عالٍ وكأنَّ به مسٌّ من جنٍّ، ظلَّ يضحك وهي تناظره بألمٍ حتَّى أدمعت عيناه، ثُمَّ وقف ودار حولها قائلاً:

– قبل أشهرٍ كانت السَّعادة تُغلِّفُ القرية وناسها، كنتِ قريبةً لأعزِّ أصدقائي، وقبل أيَّامٍ قليلةٍ كنتُ أبثُّ حُبِّي

لأعزِّ صديقاتك، أرأيتِ يا وجد كيف تتبدَّل الأحوال؟ لو أنَّ أحدهم قال لي قبل مُدَّةٍ من الآن أنَّكِ ستكونين عروسةً لي لكنتُ قد اتَّهمته بالجنون! أنا لا أُحبُّك، ولستُ مُغرماً بك، لمَ أنتِ هنا؟ لا أعرف! كُلُّ ما أعرفه أنَّني في لحظة ضعفٍ منِّي وافقتُ على هذه المهزلة، وانتهى بي المطاف زوجاً لك، وخسرتُ فيها حُبَّاً لا تُعوِّضه الأيَّام.

لم يُحرِّك كلامه فيها أيَّ شيء، فروحها سرقها كنان، والآن هي جسدٌ لا يتحرَّك، قالت بهدوء:

- وأنا لا أرغب بكَ زوجاً، ولولا تهديد يامن لي لما وافقت على هذه المهزلة كما أسميتَها أنت، كنان سيبقى عالقاً بيننا، لن تمسَّني فيمسَّك بسوء، أنتَ الوحيد يا مالك الذي يعرف بعلاقتنا، فأنا من أطلب منكَ الابتعاد، أنا مكتفيةٌ بحُبِّ كنان ولا أرغب بحُبٍّ جديد.

نظر إليها مُطوَّلاً، ثُمَّ قال بألم:

- أنتِ لعنةٌ يا وجد، لعنةٌ تحلُّين على كُلِّ من يقترب منك.

لم تفهم لمَ هاجمها وكأنَّها شرٌّ هبط من السَّماء عليه، هي لم تطلب منه هذا الزَّواج، على العكس توسَّلت للجميع كي لا يحدث، طالما هو من رفضها لمَ تزوَّجها مرغماً، هل سينتقم منها؟ أم هناك سرٌّ لا تعرفه؟

ارتمت على السَّرير بعد أن بدَّلت ثيابها، فكَّرت في تحوُّلات القدر العجيبة، وارتمى هو على الجانب الآخر من السَّرير يُفكِّر بمسوِّغاتٍ يُقدِّمها لحلا حتَّى غفت عيناه، وما إن كادت تغفو هي حتَّى سمعت نحيباً قادماً من الشُّرفة، قامت مسرعةً وفتحتها، دخلت فوجدته في الزَّاوية يضمُّ نفسه وينتحب، اقتربت منه وجلست القرفصاء قبالته، لم ترَ نظرات الخذلان تُطِلُّ من المحجرين الفارغين، ولكن شعرت بها.

- لم أتوقَّع أن تكوني بهذا السُّوء.
- رغماً عنِّي، صدِّقني، توسَّلتُ للجميع أن يتركوني وشأني، ولكن بلا فائدة، لم أدعه يقترب منِّي.
- وهل سأنتظر حتَّى يقترب منك؟ ستجدينني دوماً حائلاً بينكما، أنتِ لي يا وجد، حتَّى بعد وفاتي ستبقين مُحرَّمةً على الجميع.

- لا تكسرني، فكُلَّما شعرتُ أنّي في أمانٍ معكَ تعيدني إلى نقطة الصِّفر، لو كنتُ أعرف أنَّ للحُبِّ ثمناً أكبر ممَّا توقَّعت ما كنتُ أحببت.

تجاهل المعنى المُبطَّن لكلماتها، وطلب منها عهداً جديداً:

- عديني ألَّا تجعليه يقترب منك.
- أعدك، وأنا على يقينٍ بتنفيذ وعدي.
- سيبقى هذا الوعد ديناً يُطوِّقُ رقبتك، وخاصَّةً بعد أن أحرقتُ عمري ورحلتُ دونك.

وقف مالك خلفها، وجدها تتأمَّل الفراغ شاردةً به وتتحدَّث همساً، وضع يده على كتفها، انتبهت إليه، لكنَّها لم تُعِره اهتماماً؛ إذْ كانت مازالت شاردةً في تلك الرُّوح، وقبل أن يسألها وضعت سبابتها على شفاهها وقالت:

- هسْ، اسكت، كنان حزين، إنَّه يتألَّم من أجلنا.

نظر إلى المكان حيثُ أشارت، ثُمَّ قال:

– طمئنيه بأنَّكِ ستبقين له، ولن تكوني لي طال العمر أم قصر.

وقفت وشكرته على ما قاله، الآن فقط ستنام قريرة العين وستحاول أن تتجرَّد من هذه الأوهام، الحياة تمضي والكُلُّ يلهو بها ووحدها واقفةٌ في مكانها مُقيَّدةٌ بمخاوفَ مخزَّنةٍ في ذاكرتها.

ومع أنَّ مالك لم يُحبَّها يوماً، فهو كالآخرين اتَّهمها بأنَّها السَّبب في خسارة صديقه إلَّا أنَّه حين رأى حالتها هذه أشفق عليها وهاله ما رآه منها، كانت صادقةً لأبعد حدٍّ، بعيدةً عن التَّمثيل؛ إذْ كانت صادقةً في غرامها وهواجسها المُخيفة بالنِّسبة إليها، وعلى الرَّغم ممَّا سمعه من قبل من أهالي القرية عنها إلَّا أنَّه حين رآها في حالتها هذه حزن عليها، وأدرك أنَّها بريئةٌ ممَّا نُسب إليها.

خرج مالك باكراً ليرى حلا لعلَّها تستمع إلى أعذاره، لكنَّه لم يلقَ منها سوى نظرات الخذلان، ظلَّت تنظر إلى الوردة الصَّفراء في يدها متجاهلةً النَّظر إليه، قالت بصوتٍ مرتجف:

- في أوَّل لقاءٍ أهديتَني وردةً صفراءَ أدركتُ حينها بحدس أُنثى مولعةٍ بالتَّفاصيل أنَّ هذا الحُبَّ سيغدو حزيناً، سينتصر طرفٌ على حساب الآخر.

قاطعها هامساً باسمها:

- حلا.. أنا..
- دعني أُكمل، وإيَّاكَ مقاطعتي! كان خوفي من خوض هذه التَّجربة هو النَّجاة لي من بئر غرامك، لكنَّكَ كنتَ ثعلباً ماكراً بارعاً في اصطياد فريسته بكلامكَ المعسول، جرَّدتني من سلاحي الوحيد وهو الخوف، سحبتَني إلى البرِّ الآمن، فخسرتُ حينها قلبي. إنَّ الطِّفل الخائف هو النَّاجي على الدَّوام، في حين أنَّ الطِّفل الشُّجاع هو من يتوه، بعض الخوف مصدرٌ للأمان، لمَ انتزعتَ مخاوفي وسرقتَ حلمي بالأمان؟

ظلَّ صامتاً يستمع إلى عتابها، أردفت وهي تُمزِّق الوردة بأناملها:

- أنا ضحيَّة أشواق الفجر وحنين اللَّيل وظروفكَ الكاذبة، ستُخبرني بحجج الرِّجال جميعها النَّصيب القدر الظُّروف، أليست هذه أعذارك؟ سدَّدتَ طعنتكَ في قلبي وأنا أستمع بمرارةٍ لكلام علاء عنك: "وجد أمانة كنان،

وعليك المحافظة عليها". وأنا أيضاً أمانته، إذن، لمَ لفظتَني من حياتكَ وكأنَّني داءٌ ولم أكن يوماً لكَ دواء؟!

- كانت وعودي صادقة، لم أكن كاذباً في هذا الحُبِّ، لم أُفكِّر يوماً في امرأةٍ سواكِ، لم أقصد جرحكِ إطلاقاً، صدِّقيني يا حلا، كنتُ مخلصاً حتَّى آخر لحظة.
- جميع الرِّجال تبدأ بداياتٍ مختلفة، لكنَّ النِّهايات دائماً تتشابه، لا تتغيَّر الأعذار بالنِّسبة لكم، الاختلاف الوحيد هو مقدار الخيبة التي تُخلِّفونها خلفكم، حُبُّكَ كان لطيفاً كنسمةٍ باردةٍ في أغسطس، دافئاً كموجةٍ دافئةٍ في يناير، لكنَّكَ خذلتَني، لا أعرف كيف أصف لكَ الأمر، يشبه مراقبتكَ للشَّمس ساعة الغروب، لا تعرف متى انتهى النَّهار ومتى يبدأ اللَّيل، متى بهت الحُبُّ وجاء الحنين.
- أنا متعبٌ يا حلا، وكُلُّهم يتَّكِئون عليَّ، أسنديني إلى كتفكِ وبين يديك، أجلسيني في عمق صمتكِ وعتمتك، فأنتِ أقرب أُغنيةٍ إلى قلبي، هذه الأُغنية التي تجاهلتها كثيراً وبعدها اكتشفتُ أنَّها رائعة، أودُّ البقاء في تفاصيلكِ الصَّغيرة، فأنا تائهٌ من دونك.

- هل أتيتَ لأنّي حلا؟ أم لأنَّكَ تائهٌ ولا تعرف سوى عنواني؟
- أتيتُكِ وفي جُعبتي أيَّامنا اللَّطيفة، ولحظاتٌ جميلةٌ من الودِّ والألفة.
- الطَّريق نحوكَ أضحى وعراً وغريباً عنّي، وكأنّي أعبره أوَّل مرَّة.
- سأُساعدكِ لنصل معاً.

ابتسمت بألمٍ، ثُمَّ قالت:

- أنتَ ملكٌ لأُخرى يا مالك، وإن كان قلبكَ لا يهواها، لا تكذب على ذاتكَ ولا تكذب عليَّ، أنتَ من أقفلتَ صفحةً كانت جميلةً لتبدأ صفحاتٍ أُخرى بإرادتك، لا أستطيع أن أُجاريكَ بشأن كذبتكَ الجديدة بهذا الغرام، سأكون أنا السَّيِّئة في روايات الجميع، سيقولون عنّي ما ليس فيَّ، غاوية، ماكرة، قليلة الحياء، ستلصقُ بي مفرداتٌ كثيرةٌ سيِّئة، ووجد ستغدو الضَّحيَّة للمرَّة التي لا أعرف عددها.

سكتت هُنيهةً فانتظرت منه ردَّاً على كلامها، وحين طال صمته أكملت هي:

- وجد سرقت سعادتي مرَّتين، خسرتُ أغلى ما لديَّ بسببها، لم ينهزم إلَّا قلبي، فقراء هذه القرية لا أمل لهم بالسَّعادة.
- الحياة رحبةٌ وواسعة، لا تكوني عالقةً عند هذه النُّقطة، لا تكوني أسيرة أفكارٍ وهميَّة.
- أفكاري نتاج تجربتي هنا، في القلب أحاسيس لا يعيشها سوى المنكسر، لن تفهم كلامي؛ لأنَّكَ الظَّالم لا المظلوم.

بُهِتَ من كلامها، رمتِ الوردة أشلاء عند قدميه وغادرت نحو بيتها، ارتمت في حضن والدتها تبكي خذلانه وخيبتها.

- لا أعرف إلى أين عليَّ الذَّهاب، كُلُّ الأماكن أضحت تستهزئ بي وتمدُّني بذكرياته، رجالُ هذه القرية لا يتألَّمون ولا يبكون، إنَّهم يُؤلمون قلوبنا بصمتٍ ولا يُحرِّكون ساكناً.

- أنا السَّبب فيما حصل، ما كان عليَّ أن أعود بكم إلى هذه القرية، غادرتها فجراً وأنا منكَّسة الرَّأس، عدتُ إليها شامخة، لكنَّني خسرتُ فيها الكثير، وأخشى من خسارةٍ جديدةٍ لا أستطيع الصُّمود حيالها.

نظرت حلا إلى والدتها، مسحت عبراتها، تأمَّلت حزن والدتها، لقد استطاعت أن تتجاوز، ولكن كلَّفها ذلك الكثير، وبعدها تجرَّدت من مشاعرها، فأصبحت تعيش في منطقةٍ وسطى ما بين اللَّأمان واللَّاخوف.

عاد مالك إلى البيت، جلس بجوار والدته، سألته عن وجد، فابتسم بتهكُّمٍ وقال:

- إن أخبرتكِ أنِّي لستُ بسعيدٍ هل ستطلبين منِّي تسريحها؟
- بالطَّبع، ما يهمُّني سعادتك.

ضحك ضحكةً عالية، وقال بعد انتهاء نوبة ضحكه:

- وهي يا أُمَّاه؟ أليست روحاً، بشراً؟ لديها مشاعر وأحاسيس، هل هي لعبةٌ في يديك؟ تزوَّجها يا مالك، وبعدها سرِّحها! أنا هنا رجلٌ آليٌّ لتلبية رغباتكِ والحفاظ على سمعة العائلة، لأُعوِّض النَّقص في حياتكِ من إنجابكِ لابنتين زائدتين عن الحياة، خُلقتُ فقط لتلبية احتياجاتكم، واحتياجاتي نركنها على رفٍّ عتيق، فلا حاجة لها.

كانت ملاك تجلس على كُرسيِّها في الزَّاوية، تستمع إليه وهو يجرحها بكلامه، أكمل:

- اتركي أمر سعادتي جانباً، ما يهمُّكِ سمعة عائلتكِ التي حرصتِ عليها، لذلك نفيتِ ابنتكِ الصُّغرى في القبو خشية أن يتسرَّب خبر أنَّ لديكِ طفلةً مصابةً بمتلازمة الدَّاون، لا تتحدَّثي عن السَّعادة وأنتِ تعيشين في بيتٍ لا أحد فيه سعيدٌ بسببك.

غادرها، فوجد ملاك تستمع، اقترب منها وجثا على ركبتيه أمامها، قبَّل جبينها معتذراً على ما تفوَّه به، وبعدها قال:

- أنتِ ألطف فتاةٍ يا ملاكي.

نظرت إلى والدتها بخيبة أملٍ بعد أن غادر أخوها، واتَّجهت إلى غرفتها.

دخل مالك غرفته، كانت وجد تقف أمام النَّافذة تتأمَّل الحقول الخضراء، ألقى السَّلام عليها وبعدها ألقى مفاتيحه وهاتفه على الطَّاولة، وارتمى على الأريكة، التفتت إليه، كان الهمُّ يسكن مقلتيه والألم قد تُرجم على صفحة وجهه، أدركت بحسِّها الأُنثويّ أنَّ قصَّة حُبِّه انتهت وهي من أنهتها، لمَ تُحمِّل نفسها المسؤوليَّة وهو الجاني الوحيد؟ اقتربت منه وهمَّت بسؤاله، لكنَّ كنان وقف حائلاً ما بينهما، رأت الضَّوء الأخضر المنبعث من المحجرين وكأنَّها رسالة تهديدٍ واضحةٌ بألَّا تقترب، ابتعدت مُرغمةً وجلست على طرف السَّرير، رفع رأسه إليها متسائلاً:

- لمَ ابتعدتِ؟
- لا يريد منِّي الاقتراب أكثر من ذلك، أرفضت غرامك؟
- ومن قال لكِ إنَّه غرام؟
- عيناكَ تتألَّم، ثُمَّ قد أخبرتني عنها في أوَّل يومٍ لي هنا.

- هي ابتعدت بجرحٍ حُفر في قلبها.

ثُمَّ صرخ عالياً:

- بسببكِ خسرتها وهي أطهر نساء الأرض وأجملهنَّ، هي الاستثناء من كُلِّ قواعد العالم، وقفتُ أمامها وهي تتلو ذنوبي كطفلٍ في مدرسةٍ يُعاقب لعدم كتابته واجبه، كنتُ أمامها كتلميذٍ كسولٍ بليدٍ وهي تلومني بسبب زواجٍ لم أقصده، لأنقذ شرف العائلة من خرابٍ كان سيطاله بسببك.

كانت هادئةً مستكينة لا ترغب بالشِّجار معه، فقالت:

- وما شأني وعائلتك؟

وقف يصرخ كذئبٍ جريح:

- أنتِ السَّبب فيما حصل، أنتِ لعنةٌ قد حلَّت على الأرض يا وجد.

طرق باب غرفته والداه بسبب نبرة صوته العالية، هبت واقفة وركضت مُحتميةً خلف العمِّ جابر تستغيث به طالبةً منه

الحماية، كان جابر قد استمع إلى نصف الكلام، نظر إلى ابنه نظرةً مُطوَّلةً، وبعدها سأله بتهكُّم:

- لمَ تزوَّجتها إن كنتَ تدينها؟

سكت الآخر ولم يعرف بما يجيب، ظلَّ والده ينتظر الإجابة منه حتَّى قالت سعاد:

- أنا السَّبب فيما حصل، هو فقط استجاب لطلبي.

استدار إليها جابر فرآها تنظر إلى وجد، لا تُريدها أن تعرف أصل الحكاية، فهم مطلبها وخرج من الغرفة طالباً من ابنه اللَّحاق به.

جلسوا ثلاثتهم في الصَّالة، وبدأت سعاد تقصُّ عليه تفاصيلَ عرفها من قبل وتغاضى عنها، والآن يعرف ما الذي دفعهما لهذا الزَّواج، جُنَّ جنونه، وصاح بمالك:

- غبيٌّ يا مالك، تعالَ وحدِّثني عمَّا قيل، فأنا استمعت لهكذا كلام وفنَّدته على الفور، والدها قد طلب منِّي هذا الطَّلب لأُخرجها من ظلمات الخوف إلى نور الأمان، لم

أُفكِّر بها إلَّا كملاك، لستُ شاذَّاً لأنظر إلى طفلةٍ مجروحةٍ تبحث عن التّرياق فأكون لها سُمَّاً قاتلاً، والدكَ ليس مجرماً ليفعلها.

نظر إلى زوجته بخيبة أمل، وبعدها نظر إلى ابنه بخذلانٍ كبير، وأردف:

- كسرت قلب حلا بفعلتك، وها أنتَ تكسر قلب وجد بحماقتك! والسَّبب أنَّكَ تسعى لمرضاة والدتك، لم يخسر أحدٌ سواك، ومع أنِّي كنتُ رافضاً الفتاتين، لكن أرفض أن تكسر فؤاديهما بسبب غبائك.

بعد خروجه جلست سعاد تشعر بتأنيب الضَّمير، بينما غادر وحيدها المنزل لعلَّه يُطفئ ثورة غضبه.

جاء يامن لزيارة وجد، فتحت الخادمة الباب وأدخلته إلى الصَّالة، كانت ملاك تشاهد التِّلفاز، لم تنتبه لنظرات ذاك الطُّفيليّ، أوَّل مرَّةٍ يرى ملاكاً على هيئة بشر، كانت جميلةً بابتسامتها الخلَّابة وشعرها الذَّهبيّ المُنسدل على كتفيها، رائعةً كفتيات المجلَّات، ظلَّ واقفاً مشدوهاً بجمالها، كانت المرَّة الأُولى التي يراها بها، كان يسمع عنها فقط، حمحم مرتبكاً حتَّى انتبهت إليه، تقدَّم بخطواتٍ واثقةٍ إلى الأمام، مدَّ يده مصافحاً لها مُعرِّفاً بنفسه، وحين احتضنت كفُّ يده يدها سرت قشعريرةٌ

من الكهرباء دغدغت جسدها الغضَّ، سحبت يدها على الفور وهمَّت بالابتعاد، لكنَّه وقف أمامها يمنعها، أراد أن يتعرَّف عليها أكثر؛ إذْ جذبته عيناها الخضراوان وكأنَّه رأى فيهما مساحاتٍ من الغابات الخضراء، أطرقت رأسها حياءً من نظراته الفاحصة، ابتسم لها وجلس على الأريكة يتحدَّث عن أيِّ شيء، حتَّى دخلت وجد بعد أن أخبرتها الخادمة بتواجده، لعن وجد على قطعها لحظاته السَّعيدة، فهربت ملاك بوجهٍ أحمرَ مشتعل، بيد أنَّه جلس وكأنَّه لم يرَها، تحدَّث مع وجد عن حياتها، وغادرها ينسج خيوط حكايةٍ حمقاءَ بدأت للتَّوِّ، بطلها رجلٌ من رجال القرية المنتصرين على نسائهم.

ظلَّ علاء يتأمَّل صمت عهد، أشاح بوجهه عنها وارتشف من فنجان قهوته، كان يجلس معها على طاولةٍ في مطعمٍ شعبيٍّ في قلب العاصمة، بدَّد لحظات الصَّمت حين قال:

- لا تصمتي هكذا، دافعي عن نفسك.
- لا أكذب عليكَ، كنتُ هكذا.
- والآن؟
- ابتعدتُ عن درب اللَّهو، ونويتُ إصلاح حياتي.
- أبعدَ حادثة وجد؟ أم بعد اعترافي بمكنونات حُبِّي لك؟
- لا يهمُّ متى بدأ الإصلاح، ما يهمُّني أنِّي لم أعد تلك الفتاة المنطلقة الباحثة عن الحرِّيَّة، ماذا تريد أن تعرف لأخبركَ عنه؟
- اطمئنِّي، لقد عرفتُ كُلَّ شيء.

- أنتَ لا تعرف شيئاً؛ لأنَّكَ لم تعش ما عشناه، بنات قريتنا يعشن في قمقمٍ لا يخرجن منه إلَّا بزواجٍ يرضي العائلة والعادات، يرضي الذَّكر أكثر ممَّا يرضي الأُنثى، هناك كُلُّ شيءٍ حرام، وهنا وجدتُ كُلَّ شيءٍ مباحاً، فأحببتُ تجربة الأشياء الممتعة والمحظورة هنا.
- لا تُسوِّغي أخطاءكِ بمسوِّغاتٍ باطلة، كُلُّ من يرتكب جناية القتل يقول إنَّ الشَّيطان من أغواه، كفاكِ مبرِّراتٍ لا يُقبل النِّقاش فيها.
- أنا الآن مختلفةٌ عن الفتاة التي سمعتَ عنها، صدِّقني يا علاء.

عاد وارتشف من فنجان قهوته، ثُمَّ قال:

- أنتِ لم تعرفي مشاعري وأنا أغادر هذه القرية لآتي إليكِ فأخبركِ أنَّ الشَّوق من بعدكِ قاتلٌ وليس برحيم، كنتُ أريد أخذكِ في حضني وألفَّ بكِ العالم سبعين مرَّة، كنتُ على استعدادٍ لمحاربة الجميع للفوز بقلبك، فوجدتُ أنَّ كُلَّ المبادئ والقيم والأخلاق ضدِّي، اكتشفتُ أنَّكِ نسخةٌ لا تشبه نساء قريتنا، نسخةٌ وحيدةٌ غير مكرَّرة، حتَّى

وجد التي لامها الجميع لم تحذُ حذوك، سمعتُ الأخبار عنكِ وكذَّبتها، أحياناً نتمنَّى تكذيب الحقائق لئلَّا تُؤلمنا، لكنَّ ما رُوي عنكِ كان للأسف صحيحاً.

كانت تفرك يديها ببعضهما دليلاً على توتُّرها، بينما أردف هو قائلاً:

- لمَ هربتِ دون إخباري بحقيقتك، كان ذلك أفضل من مجيئي واكتشافي للعبث الذي تحيين به.
- كنتُ خائفةً من هذا الغرام، من قصَّةٍ لم أتهيَّأ لها بعد، خائفةً من خسارتكَ بعد أن أتعلَّق بك، هربتُ منكَ؛ لأنَّكَ أنقى من أن تكمل حياتكَ معي، أعترف بما عشته من سنين هنا، ندمتُ على حياتي الماضية منذ أن عرف قلبي قلبك، أنتَ السَّبب الذي دفعني لأحتميَ خلف حكاياتٍ تعرِّيني، لستُ نقيَّةً ولكنِّي لستُ بفاضلةٍ لأُخبر الجميع أنَّني كنتُ فتاةً لاهية، لن أمشيَ في الشَّارع وأنادي النَّاس كي يُعلِّموني فضيلةً لا يعرفونها.

وقفت وأكملت حديثها:

- تبريراتكَ ناقصة يا علاء، قصَّتنا منتهيةٌ قبل البدء بها، حينما تخلَّصتُ من آثامي عشتُ أيَّاماً في خوفٍ ينهش بي، وأنا في تفكيرٍ دائمٍ بمن سيرغب بالاقتران بفتاةٍ عابثة، وبعدها اهتديتُ إلى إجاباتٍ لا حصر لها.

تنهَّدت قليلاً، ثُمَّ أكملت:

- الحُبُّ من يفعل ذلك، وأحمدُ الله أنَّني لم أقع في هواكَ متيَّمة.

غادرته بقلبٍ كاذب، رحلت قبل أن يكمل حديثه، لم تفهم بعد أنَّه رجلٌ شرقيٌّ يرغب بأن يكون أوَّل رجلٍ يقتحم قلب أُنثاه، كُلُّ الرِّجال تعبث بقلوب العذارى، وحين الجدِّ يبحثون عن قلبٍ لم يعرفِ الحُبَّ يوماً.

عاد علاء إلى القرية واختلى في غرفته، عرفت هيفاء أنَّ قلب ابنها كسر أيضاً، خرجت من البيت بعد أن ضاقت بها جدرانه، جلست على عتبة البيت شاردةً في حاضرها ومستقبل ولديها، حتَّى سمعت نحنحةً قريبةً منها، التفتت إلى منير، رأته يتأمَّلها

بحنين، كان حزيناً على أحزانها، قامت ونفضت رداءها، همَّت أن تدخل، لكنَّها تراجعت والتفتت إليه قائلة:

- للمرَّة الثَّانية تنتصر أمامي وأُهزم أمامك، عدتُ بأطفالي الثَّلاث منتصرةً كي أُريكَ أنِّي امرأةٌ من حديد، المرأة التي هربت فجراً تتلفَّت يمنةً ويسرى كي لا يلمحها في سواد الفجر أحدٌ قد عادت أقوى منتصرةً بأبنائها، لكنَّ القرية عادت وأذاقتني من كأس الألم ذاته، لا حياة للفقراء هنا، ابنتاكَ وأنتَ قضيتم على آخر دقَّةٍ في الفؤاد، اليوم قد أدركتُ أنَّ هذه القرية ستبقى تُذيقنا الويل ولن نجد فيها مرساةً للسَّعادة.
- لا فرق بين الغنيّ والفقير، لكنَّها أقدارٌ وحظوظ.
- سأذهب بعيداً.
- إلى أين؟
- لا يهمُّني المكان بقدر ما يهمُّني الابتعاد، حيثُ لا أسمع وقع نعالكم، لعلَّنا نرتاح، فخساراتي ليس لها تاريخ انتهاء، وستستمرُّ حتَّى أخسر طفليَّ.

ظلَّ صامتاً شارداً في كلامها، لم يفق من غفلته إلَّا بعد أن ارتجَّ جسده من قوَّة إغلاق الباب.

عاد إلى البيت منكَّس الرَّأس، فاستقبلته نادين قائلة:

- أما زال الغرام مسيطراً عليكما؟
- إنَّها مجرَّد فضفضة جارةٍ لجارها.
- أصدِقني القول يا منير، أمازلتَ في غرامها واقعاً؟
- كان ذلك قبل أعوامٍ من الآن.

تركها ودخل غرفته وهو يعيد ذكرياتهما معاً، فهذه القرية لا تفعل شيئاً سوى تفريق المُحبِّين وإلزامهم بعاداتٍ وأعراف يحترمها الكبار ويُقيِّدون بها الصِّغار.

جلست وجد على ركبتيها تنظر إلى أسفل السَّرير، تستمع إليه وهو خائفٌ منها، هتف بفحيح أفعى:

- لقد أردتُ أن أكون واقعاً جميلاً لك، ولكن أجدني الآن أقف بعيداً أُحدقُ في الأشياء التي فاتتني دون أن أستطيع لمسها، كم أودُّ لمسكِ، أودُّ أن نعيد وجد الحُبِّ يا وجد.
- أنا أعيش وكأنَّني ميِّتة، بي وجعٌ لا يُحتمل، أراقب الحياة وهي تستمرُّ وكأنَّني لستُ منها.
- أحياتُكِ صعبةٌ يا وجد؟
- لا يمكنني الاستمرار فيها دونك.

دخل مالك الغرفة، فاختفى كنان بعد أن خانته دمعةٌ تخبره أنَّ الواقع غدا لغيره، فلا داعي لرثائه في كُلِّ ليلةٍ دون أن يسفر نواحه عن شيءٍ جديد.

ظلَّ مالك ينظر إلى وجد حتَّى وقفت، لمحته فنفضت الغبار عن ثيابها دون أن تعيره انتباهاً.

- إلى متى ستظلُّ الأوهام تعبث بعقلكِ حتَّى تصيبكِ بالجنون؟
- أنتَ لم تُجرِّب ما أُعانيه، فلا تتحدَّث وأنتَ خارج دائرة هواجسي، أنا مصابةٌ بسهاد الخوف الدَّائم والأرق الذي يأكل عمري عبثاً، أنتَ لا تعرف معنى أن تستمرَّ في الحياة على الرَّغم من أنَّ هناك شيئاً عالقاً متوقِّفاً عند لحظةٍ ما. أنا محاصرةٌ ما بينه وبين مخاوفي، لا يرحمني إطلاقاً، وكُلَّما اقتربتُ منه هاجمني بشراسة، وكُلَّما ابتعدتُ عنه عاد يُعاتبني بعينين تقطران دماً.
- ستأتي أيَّامٌ جميلةٌ تتوقَّفين فيها عن محاولة الهرب، ستمرُّ بكِ أيَّامٌ تنسيكِ مرارة هذه الأيَّام.
- أخاف أن أظلَّ هكذا حتَّى أشيخ مقيَّدةً بحباله، يلهو بي كما يريد، يبثُّ في صدري مخاوف لا أستطيع محوها من حياتي، أتراكَ ستكون لي عوناً لإنقاذي من خطره المحدق بي على الدَّوام؟

أومأ برأسه مبتسماً فابتسمت له، وبعدها طلبت منه أن يذهب إلى حلا، وألَّا يتركها هذه الأيَّام، وكأنَّ طلبها جاء منقذاً له من هلوساتها وروائح الغرفة وكأنَّها كانت تستحضر أرواحاً شرِّيرة.

وصل إلى بستان تلك الصَّغيرة، كان سعيداً فوجد تفهَّمت هذا الغرام؛ إذْ إنَّها ذاقت لوعة الهيام، ارتمى بجوارها على الأرض وكأنَّ هذا البستان أصبح يخصُّه بوروده ومزروعاته، سألته بعد أن باغتها بجلوسه دون استئذان:

- لمَ عدتَ يا مالك؟
- قادني الشَّوق إليكِ، وما الشَّوق سوى قاتلٍ مجرمٍ إن لم أستجب له سأجدني قتيلاً في حناياه، اهدأي يا حلا، لا داعي لثورة غضبك.
- لا سبيل للهدوء إن كان مصدر الضَّجيج أعماقي.
- انظري إلى السُّحب، قد لا نستطيع لمسها ولكن بإمكاننا الاستمتاع بالنَّظر إليها.

فهمت ما يرمي إليه، فقالت:

- لكنَّها سعادةٌ مُؤقَّتة، وبعدها سيلزمنا أيَّامٌ كثيرةٌ نعيشها على ذكراها.
- ستكون لكِ سلالٌ من ذكرياتٍ رائعة، لا تقتليها الآن.

- كتفكَ هذا الذي سندني يوماً تحوَّل إلى قدمٍ ركلتني من حياتك، لن تجمعنا حياةٌ مشتركةٌ بعد الآن.
- سيبقى كتفي وسادتكِ ومسندكِ إلى الأبد.
- أرغب في سفرٍ طويلٍ أبتعد فيه عن كُلِّ شيء.
- سأكون رفيق رحلتك.
- إنّي هاربةٌ منك، أنا أثمن من أهدر طاقتي في مكانٍ لا ينتبه أحدٌ لوجودي، أنتَ أيقظتَ فيَّ مشاعر حُبٍّ ولَّدتها على يديك، ولستَ راغباً بي.
- الأمر ليس كما تظنّين.

وقصَّ عليها الأمر بالتَّفصيل، ابتسمت بتهكُّمٍ حين انتهى من سرد التَّفاصيل، وقالت:

- هناك آلاف الحلول لتحلَّ مسألتك، لكنَّكَ اخترتَ أسهلها لتمضيَ على جرحي وأنتَ غير عابئٍ بألمي، وكأنَّكَ تمضي بسكِّينٍ على قدمي وتعبرني مرَّاتٍ عدَّة وأنا أستنجد بكَ أن ترحمني، لكنَّك مستمتعٌ بصراخي وكأنَّ اللُّعبة راقت لك، وبعدها أسرعتَ إليَّ تمحو خطيئتكَ بسكب الكحول على جرحي فتزيدني ألماً، وأنتَ تعتذر

عمَّا فعلت، وأنا أصرخ ألماً مرَّاتٍ أُخرى دون أن تسمع نحيبي، أعذاركَ مرفوضة؛ لأنَّ الحلول كانت في متناول يدكَ لكنَّكَ اخترت أيسرها.

ظلَّ صامتاً يستمع إلى توبيخها، فأردفت:

- أنا السَّبب! ما كان عليَّ أن أتخلَّى عن حذري من هذا الدَّرب الوعر، لكنَّكَ كنتَ ضوءاً مبهراً وأنا فراشةٌ غبيَّةٌ أعجبني بريقك، فاحترقتُ أنا بينما توهجَّتَ أنتَ باحتراقي.

وقفت على قدميها وتابعت حديثها:

- الفأس الذي يقطع الشَّجرة ما هو إلَّا جزءٌ منها، وأنتَ قطعتني يا مالك.

وجدت نفسها فجأةً مُقيَّدةً في صحراءَ شاسعةٍ وأصواتٌ غريبةٌ تأتي من خلفها تزعجها وتقرع طبلتي أُذنيها بلا هوادة، كانت أصواتاً مزعجةً جدَّاً بعد أن تعالت محدثةً في معدتها قرحة، بدأت تتعرَّق وتصرخ ولا أحد يستمع لصدى صرخاتها، انسكب دمعها حتَّى لمحته كطائر الباشق يريد الانقضاض عليها، صرخت برعبٍ لكن لم يسمعها أحد، ظلَّت تُحرّك وجهها راغبةً بالابتعاد والعرق يتصبَّب منها، أيقظها مالك على الفور، نظرت إليه بهلع واختبأت في حضنه، لم تكن تطلب إلَّا الأمان حتَّى هدأت وارتخت عضلاتها المشدودة، نظرت إلى عينيه فوجدت كنان، ملست على وجهه بيدها النَّاعمة، مازالت ترى وجه الحُبِّ الذي كان، فاقت على اختفاء عينيه وبسمةٌ تهكميَّةٌ قد صدرت عنه، صاحت وجد، خبَّأت وجهها في يديها، حاول مالك معانقتها، لكنَّها هربت منه واحتمت في زاوية الغرفة، تقوقعت على ذاتها وصاحت بهلع:

- لا تمسَّني بسوء، لم يعد لي رجاءٌ سوى أن أمضي بقيَّة أيَّامي بهدوء.

وقف واقترب منها قائلاً:

- اهدئي يا وجد، أنا مالك، لن أمسَّكِ بسوء.
- رأيته فيك، كان جميلاً كما تركته، لكنَّه سرعان ما تحوَّل إلى روحٍ قاتلة، جعلني امرأةً منطفئة، لا أبتهج للأمور الجميلة ولا تُسعدني السَّعادة، جافاني الكرى وأغلق كُلَّ طرق الرَّاحة في وجهي.
- أخبريني بما رأيته؟
- يُقال إن تحدَّثنا عنه لأحدهم، رُبَّما يتحقَّق ويقتل الحياة فينا.
- إذن، تجاهليه، طالما تعرفين أنَّه محض كابوس، أكنتِ تُفكِّرين به قبل النَّوم؟
- أجل، لم يشغل تفكيري سواه.
- أرأيتِ أنَّكِ من تجلبينه إلى أحلامك، وبعدها تندبين وتبكين، اشغلي نفسكِ عن التَّفكير به وكأنَّه ما كان بطلكِ يوماً.
- أتُريدني نسيان حُبٍّ عظيمٍ تملَّكني يوماً؟
- كان يا وجد، ولم يعد، حاولي تجاهله.
- سيُؤلم قلبي.

- يؤلمكِ أيَّاماً أفضل من أن تتألَّمي دهراً، العمر يمضي بك وأنتِ مازلتِ في قمقم الرُّوح التي تعثو في روحكِ الفساد، تحدّيه يا وجد، وتعاملي معه على أنَّه ندٌّ لكِ ولم يكن يوماً حبيباً.
- لمَ تقول لي هذا الكلام وأنتَ الصَّديق الصَّدوق؟
- كي تعيشي ما بقي لكِ من حياةٍ بأمانٍ واطمئنان.

سحبها من يدها إلى السَّرير، جلس بجوارها وظلَّ يُحفِّزها للعيش بعيداً عن كوابيسَ مرهقةٍ حتَّى هدأت روحها واستكانت، نامت من فرط الإرهاق ولم تحلم بقيَّة تلك اللَّيلة بكوابيس أُخرى، لم يزرها الأرق، بل غفت على الفور بعد انتهاء كلامه.

في الصَّباح خرج إلى حقله بينما تناولت فطورها في غرفتها، كانت لا تُحبُّ الاجتماع مع عائلته؛ إذْ تشعر بأنَّه غير مرغوبٍ بها من نظرات والديه لها، فجابر منذ تلك اللَّيلة التي انتفض لها لم يعد يجمعها معه حديثٌ أو حوار، وأغلب الوقت يتجاهلها.

نزلت من غرفتها بعد انتهاء فطورها، فوجدت حلا تجالس ملاك وتتحدَّث معها بحزنٍ ارتسم على صفحة وجهها، اقتربت منهما،

حيَّتهما تحيَّة الصَّباح، جلست مقابل حلا، لقد كانت مشتاقةً لصداقةٍ قتلها القدر.

- كيف حالك يا حلا؟

نظرت إليها وهي تحاول سبر أغوار من كانت رفيقتها يوماً، ثُمَّ قالت:

- لستُ بحالٍ جيّدة، فقدتُ الشَّغف بكُلِّ شيء، لم يعد الاستيقاظ من النَّوم يهمُّني، أستيقظ فقط لأنَّ نومي انتهى ولأنَّني أُرهقتُ من كثرة النَّوم، وبعدها أتمدَّد على سريري لساعاتٍ أتأمَّل السَّقف، متعبةٌ جدَّاً يا وجد وكأنَّني أخوض عراكاً طويلاً مع عقلي.
- أحياناً يكون ذنبنا الوحيد أنَّنا صادقون في مشاعرنا.
- أصدقيني القول يا وجد؟ أأغرمتِ بمالك؟ أم مازالت روح كنان تعبث بك؟
- أنا مثلك يا حلا، ضحيَّة قوانينَ غبيَّةٍ لا أعترف بها، أغمضت عينيَّ وما إن فتحتهما حتَّى وجدتُ نفسي في بيت مالك وزوجته، لم يكن من ضمن تفكيري، ولم أكن

من ضمن تفكيره يوماً، أنا ومالك خطَّان متوازيان لا يلتقيان مهما امتدَّا، اقتربي منه يا حلا فهو بحاجتك، ما فتئ يذكر اسمكِ بخيرٍ ويُحمِّلني مسؤوليَّة ما حصل.

- أنتِ محظوظةٌ يا وجد في سرقتكِ لأحلامي، ومع ذلك لا أستطيع كرهك، أنتِ السَّبَّاقة في كُلِّ شيء، أنا من حصدت وأنتِ من جنيتِ، سأكون صادقةً معك، في هذه القرية لا يهمُّ سمعة البنت السَّيِّئة، ما يهمُّ مستوى الطَّبقات، أتمنَّى أن تفهمي ما أعنيه، لستُ آسفةً إن كنتُ قد آلمتك، فعمق هذا الألم مازال يُؤلمني.

غادرت حلا دون أن تدع المجال لوجد أن تتكلَّم، نظرت ملاك إلى وجد وابتسمت لها قائلة:

- اعذريها يا وجد، كانت ترسم أحلاماً مبهجة، لم تعرف أنَّها ترسمها لك، اعذريها فيما قالت، فكلام الحُبِّ لم يعد لها، ولم يعد يصحُّ البقاء في المنتصف، ولا العودة إلى البداية، انتهت حكايتها بعد البدء بها بأشهرٍ قليلة، حتَّى كلمة النِّهاية لم تُكتب بعد، فمالك لم يُنهِ الحكاية وهي لا تستطيع التَّمادي بحُبٍّ ذي مستقبلٍ مجهول.

– إنّي أعذرها وأعذر روح كنان ومالك، إن كان سيسعدهم اعتذاري فأنا أُقدِّمه للجميع إلَّا لنفسي.

غادرت على الفور وسمحت للدَّمعة أن تنسكب، وقفت أمام الدَّرج تريد الصُّعود فلمحت الخادمة تخرج من القبو وهي تتلفَّت إن كان قد رآها أحد، هذه ليست أوَّل مرَّةٍ ترى مثل هذا الأمر، لا بُدَّ من أنَّ هناك ما يريب في الأسفل، انتظرت قليلاً إلى أن غادرت الخادمة ونزلت مسرعةً إلى القبو، أرادت اكتشاف هذه العائلة الغريبة، نزلت الدَّرج حذرةً تتلمَّس الجدار، كان الظَّلام يلفُّ المكان، وصلت إلى الأسفل، كان هناك ممرٌّ قصيرٌ، تلمَّستِ الجدار باحثةً عن مفتاح الإنارة حتَّى وجدته، أضاء المكان، وجدت باباً في آخر الممرِّ، اقتربت منه وأدارت مقبضه، دخلت الغرفة فرأت فتاةً في عمر الزُّهور تجلس على سريرها تلعب بلعبةٍ صغيرة، بدت جميلةً تشبه ملاك إلى حدٍّ بعيد، اقتربت منها ومسحت على شعرها، ارتجفت الفتاة فهذه أوَّل مرَّةٍ ترى فتاةً غير خادمتها، سألتها وجد عن اسمها، لكنْ لم تتلقَّ إجابة، في البداية ظنَّتها بكماءَ لا تتكلَّم، ظلَّت تمسح على

شعرها بحنانٍ كي تمدَّها بالأمان حتَّى نامت الصَّغيرة، غطَّتها وقبَّلت رأسها، ثُمَّ غادرت قبل أن يراها أحد.

عادت إلى ملاك وسألتها على الفور عن تلك الفتاة، بُهتت ملاك من كون وجد قد تعرَّفت على ملك، إن عرفت والدتها ستقيم الدُّنيا وتقعدها.

- لا تخبري أحداً بأنَّكِ زرتها في الأسفل، كي لا تقعي بمشكلاتٍ أنتِ في غنىً عنها.
- ولمَ هي محبوسةٌ تحت؟
- كي لا يراها أحدٌ ويعرف أنَّ في هذا البيت فتاةً غير سويَّة، كنت أزورها بين الحين والآخر حين كانت غرفتها تُجاور غرفتي، لكنِّي لم أعد أستطيع زيارتها بعد أن أسكنتها والدتي القبو.
- هذا ظلمٌ كبير، ما ذنبها؟
- أُدرك ذلك، لذلك عديني يا وجد أن تزوريها باستمرار، لكن بحذرٍ دون أن يراكِ أحد، كي لا تفتقد ملك زيارتكِ بعد أن تعتادها.

- أعدكِ أنِّي سأبذل قصارى جهدي لأخرجها من الظَّلام المحيط بها إلى نور عائلتها.

تركتها وغادرت إلى غرفتها لتريحَ جسدها وتُفكِّر في هذا الأمر، بينما ظلَّت ملاك على حالها حتَّى سمعت صوتاً آتياً من الخارج، وما إن التفتت إلى النَّافذة حتَّى انفتحت على مصراعيها وقفز يامن منها، شهقت ملاك، ثُمَّ قالت:

- أأنتَ مجنونٌ يا هذا؟
- مجنونٌ بحُبِّكِ وغرامك.
- كيف حدث ذلك؟
- بنظرةٍ منكِ، حيَّرت قلبي فأسكرته وأذابت جليد روحي، جعلتني ألتفُّ حول نفسي، أهذه فتاة؟ أم ملاك؟

ضحكت ضحكةً لطيفة، ابتسم لضحكتها واقترب منها قائلاً:

- اشتقتُ إليكِ، وما الشَّوق إلَّا رجلٌ مخادعٌ لا يعترف بداء القلوب.
- اخرج من هنا قبل أن يراك أحدهم، فتصبح شهيد الحُبِّ.

ضحك لطرفتها، وقال:

- لن أخرج قبل أن تعديني.
- بماذا؟
- أن أرى طيف ابتسامتكِ على الدَّوام، وأن تنتظريني هنا كُلَّما فرغت الصَّالة.
- أعدكَ بذلك، لكن اخرج الآن قبل أن تحدث مصيبةٌ أنا في غنى عنها.

أرسل لها قبلةً في الهواء وقفز من النَّافذة، أسرعت هي بكُرسيِّها وأغلقتها، بدت وكأنَّها تغلق باب الأمل في وجهه، رقص قلبها فرحاً لحُبٍّ وُلِدَ في حناياها، سيُؤلمها وحدها وتتلظَّى بنيرانه.

- عودي إليَّ يا حلا.

وضعت النَّربيج جانباً وأغلقت الصُّنبور، ثُمَّ التفتت إليه قائلة:

- حين يتحرَّر الطَّائر من قفصه فإنَّه يبتعد مسافاتٍ بعيدة، يطير إلى الأعالي ويُجرِّب أماكن لم يزرها من قبل، فالطَّائر لا يرجع إلى ذات القفص الذي تحرَّر منه.
- إنِّي أفتقدكِ كثيراً، أشعر وكأنَّ فيَّ شيئاً ناقصاً دونك.
- لن تنسيكَ الشَّوارع، ولن تلقى في وجوه المارَّة وجهاً أضعته يوماً.
- ماذا أفعل لكِ كي تعودي إلى قلبي مُجدَّداً.
- يُؤسفني إخبارك أنَّكَ لم تكن سنداً لي، هذه الشُّهور التي جمعتنا لم تكن سوى ذكرى آلمتني.

كانت ترتجف برداً وأسنانها تصطكُّ ببعضها، نظر إلى احمرار يديها جرَّاء برد يناير القارس، خلع معطفه وألبسها إيَّاه، خلعته ورمته على كتفه قائلة:

- لا تُؤلم قلبي أرجوك، لا أريد أن أستحمَّ بعطركَ ليلاً، ولا أتنفَّس رائحة معطفكَ المثقلة بذكريات الماضي، غادر

الآن كما غادرتني من قبل، لقد كان الأمر سهلاً بالنِّسبة إليك، لمَ تستصعبه الآن؟

- لأنَّني شعرتُ بمدى غبائي، وأدركتُ أنَّ خسارتكِ كانت من أسوأ الخسارات.
- ناضلتُ من أجلكَ وحاربتُ خوفاً كان الأمان في سبيل الوصول إلى مسارٍ مُستقرٍّ آمنٍ أمشي فيه بقيَّة عمري مطمئنَّة، لا يُخيفني الغد ولا تجبرني الظُّنون، لكنَّكَ كنتَ بريقاً كاذباً، لم تكن يوماً ضوءاً مبهجاً، لم يكنِ الفراق عادياً، فآثاره مازالت في قلبي، لقد سعيتُ جاهدة لبثِّ النُّور في حناياك لكنَّكَ في لحظة خداعٍ أطفئتني، والآن تركض إليَّ بنفس القوَّة التي هرعتَ إليَّ قبلاً، وذات الكلام سمعته من قبل، الآن خوفي من إكمال الحُبِّ معكَ زاد أضعافاً مضاعفة، لن أستغنيَ عنه لأنَّ خوفي هذا هو الأمان منك.

رحلت دون أن تلتفت إلى رجلٍ خلَّفته خلفها يستند إلى جذع شجرة الجوز وهو يُفكِّر في خسارتها.

ظلَّت عهد تتأمَّل علاء الذي كان مستنداً إلى جدار منزله وهو يُدخِّن بهدوء، كان شارداً في اللَّاشيء، اقتربت منه وهمست باسمه، نظر إليها مشدوهاً، لم يتوقَّع أن يراها هنا، دائماً ما تخالف توقُّعاته، أدار وجهه عنها، تألَّمت روحها لجفائه معها، لكنَّها قرَّرت خوض المعركة إجلالاً لحُبٍّ وُلِدَ في قلبها، لن تحارب قلبها بل ستقف معه، لن تخشى المواجهة؛ لأنَّ ما تخشاه قد حدث، وعلاء يعرف الآن جلَّ أسرارها، فلا معنى الآن للخوف من الماضي، لكنَّها مازالت خائفةً من أن يرفض غرامها، وقفت تعتذر له، فقاطعها دون النَّظر إليها:

- لمَ أتيتِ؟
- أتيت وكُلِّي شجاعةٌ للوقوف في وجه الخوف، كي أدافع عن هذا الحُبِّ، لا أريد نهايةً ساحقة.
- نحنُ لم نبدأ بعد.
- أدركُ أنِّي جرحتكَ جرحاً لن تنساه مع الأيَّام، قدِّرْ أنِّي كنت خائفةً حينها.
- لم يجرحني هذا الأمر، ما جرحني توقُّعاتي أنَّكِ أفضل من غيرك، العيب فيَّ أنا يا عهد.

- لقد مللتُ كثرة الصِّراعات والصَّخب والماضي الفتَّاك، أريد حياةً هادئة، خُذْ بيدي من الضَّلال إلى الرُّشد، أرغب بالاستمرار معك، فلا تُحمِّلني ما لا طاقة لي به من الحزن والقلق.
- وقلبي؟! وخذلانه؟! أتعتقدين أنِّي لم أشعر بمرارة ما حدث؟! كان الأمر أكبر منِّي، كيف سأُخرج روايات النَّاس عنكِ من عقلي دون أن يتمزَّق قلبي.

أطرقت رأسها أرضاً كي تداري عبث الدُّموع بوجنتيها، مسحتها بلطفٍ حتَّى لا يراها مع أنَّه وقف مراقباً لحركاتها وكأنَّه يحتفظ بتفاصيلها، استدارت لتغادر، ثُمَّ وقفت دون أن تلتفتَ إليه قائلة:

- كنتُ غارقة حينها ولم أجد يداً توصلني إلى اليابسة، كُلُّ الأيادي التي مُدَّت إليَّ سحبتني إلى القاع، جميعهم أخبروني أنَّ الحياة لعبٌ ولهوٌ ولن نعيشها مرَّةً أُخرى، هنا في هذه القرية لم أجد لساناً دافئاً ينصحني، وجد كانت غارقةً في أوهامها والكُلُّ شاهدٌ على مصابها، لم أجد يداً آمنةً تُوصلني إلى برِّ الأمان، كُلُّ الأيادي لم تكن آمنةً حتَّى وجدتكَ فلعنتُ حياة العبث واللَّهو، لقد

مثَّلت الصَّواب في زمن الأخطاء، تركتكَ مُمزَّقاً خشية أن تعرف سرَّاً من أسراري، وهربت إلى هناك لمحو آثار الماضي من حياتي، لكنَّكَ كنتَ سبَّاقاً لحلِّ الأحاجي، ونجحتَ في ذلك، فخسرتني وخسرتك، بعض الأشياء تسعدنا لو بقيت في الظِّلِّ، كنتُ خائفةً من هذا الحُبِّ كي لا أخسره بسبب الماضي، والآن قد عُرف ولم أعد خائفةً منه ولا من خسارتك.

استدارت إليه، وأكملت بدمع العين:

- أعتقد في هذه اللَّحظة أنِّي خسرتك.

رحلت عنه تمسح عبراتها، اقتربت حلا منه وكانت قد استمعت إلى جزءٍ من حديثهما، ربتت على كتفه، استدار إليها، فقالت:

- لا تخسرها، صدِّقني حُبٌّ كهذا من المحال أن ينتهي، انسَ ماضيها طالما وعدتكَ بالتَّغيير.
- وكنان؟ سيبقى عالقاً ما بين العائلتين.
- كنان سيبقى حيَّاً في قلوبنا، أنتَ لم تسرق حبيبته، الكُلُّ سيوافق على هذه الزِّيجة خشية تكرار ما حصل، فاستغلَّ

الظُّروف جيّداً قبل أن يفوتكَ الأوان وتعيش النَّدم وتعيد تجربة والدتك.

- كبرتِ يا حلا وأصبحتِ تتحدَّثين عن الحُبِّ وكأنَّكِ من ضحاياه.

تنهَّدت بألمٍ وقالت:

- جميعنا لدينا مشاعر ونعرف ماهيَّة الحُبِّ، سواءٌ كُنَّا من رُوَّاده أم لم نكن.

ظلَّ علاء واقفاً يُفكِّر في كلام حلا وردِّ فعل عهد، أراد الذَّهاب إليها وضمَّها، وعلى الرَّغم من اشتياقه لها خشي أن يبدأ بدايةً ليس مستعدَّاً لها.

جلست أمام الحامل، أمسكت الرِّيشة لترسم لكنَّها كانت شاردةً بطفلةٍ أهملها أهلها، وقف مالك خلفها ينتظر منها أن تبدأ، كانت متردِّدة أحياناً تضع الرِّيشة على اللَّوح ثُمَّ تبتعد وكأنَّها مشغولة الفكر، أوقفها عن التَّردُّد صوت مالك حين قال:

- لمَ هذا التَّردُّد؟ ارسمي ما خطر على بالك.

التفتت إليه، ثُمَّ عادت تنظر إلى فراغ اللَّوحة قائلة:

- هل ستعجبكَ لوحتي إن رسمتها؟
- ولمَ لا؟ لوحاتكِ جميعها جميلة.

حاولت تغيير الموضوع، لقد باغتته بسؤالها عن حلا:

- كيف أحوالكَ وحلا؟

ارتمى على السَّرير، وضع رأسه في يديه، تنهَّد قائلاً دون أن يرفع وجهه:

- الكُلُّ يُحمِّلني ما لا طاقة لي به، أيَّامي الثَّقيلة التي تمرُّ لا أحد يحملها معي سواي، قلبي أهلكني وأبكاني، أُمِّي لم تجد سواي لتبثَّ في قلبي الألم وكأنَّني رجلٌ خارق،

حلا لم تعد تريد منِّي إلَّا الرَّحيل عنها وعدم الاقتراب منها، يبدو أنَّ أيَّام الحُبِّ كانت سراباً وأوهاماً.

شرد قليلاً وطال به الشُّرود، لكأنَّ ما حاول نسيانه عاد يطرق باب ذاكرته، ثُمَّ قال لها دون النَّظر إلى وجهها:

- لقد فهمتُ متأخِّراً أنَّه لا تجرحنا إلَّا الأشياء العزيزة، لكن أنا بالذَّات جرحٌ لها وهي أعظم جراحي، لم أستطع مداواتها، وهي هربت من مداواتي.

كانت ترسم شاردةً فيما يقول، أكمل هو بألم:

- البارحة جمعني معها حلمٌ لطيف، كان حلماً من طرفٍ واحد، حتَّى في أحلامي وقفت تتأمَّل آلامي وابتعدت عنِّي وكأنَّني مرضٌ معدٍ، لم أعد أكرهكِ يا وجد؛ لأنَّني فهمت الحُبَّ جيِّداً حين فشلت به، أدركتُ معنى أن تذوبي بصمتٍ في هوى الحُبِّ.

وقف أمام النَّافذة، وأكمل:

- في كُلِّ يومٍ أعبر بجوارها أحاول أن أبدو طبيعيًّاً، فأهزم مشاعري وأتجاهل نداء قلبي، ولكن ما إن أراها حتَّى يتبخَّر كُلُّ هذا الكلام، متى ينتهي الألم؟ أليس لكُلِّ شيءٍ نهاية؟

نظر إليها، لقد أراد أجوبة عن أسئلته، صعق ممَّا رآه في اللَّوحة أمامها، كانت قد اكتملت، تأمَّلتها شاردةً وقالت وعيناها على اللَّوحة:

- الألم ينتهي حين تنتهي الحياة، فلا حياة بلا ألم.

اقترب منها وسألها عن التي في اللَّوحة، أجابته ببرود:

- أُختك.
- وكيف عرفت بها؟

ابتسمت، وعلى الفور قالت:

- ظننتكَ أكثر ذكاءً، أنسيتَ أنَّني أعيش في البيت ذاته؟ هي ليست سرَّاً حربيًّاً، ثُمَّ إنَّ لديها قلباً مثلنا.

وضعت يدها على موضع قلبه هامسة:

- قلبها يدقُّ كقلوبنا، ولديها مشاعر وأحاسيس مثلنا، لا تظلموا غيركم ثُمَّ تدَّعون الظُّلم.
- إن عرفت أُمِّي لن تجعل الأمر يمرُّ بسهولة، وستفتعل مشكلاتٍ أنتِ وحدكِ الخاسرة فيها.
- ليس لديَّ ما أخسره طالما خسرتُ أغلى ما في الحياة.

أراد الرَّحيل فاستوقفته مناديةً باسمه، وحين استدار نحوها قالت:

- ساعدني كي نخرجها إلى النُّور، كُنْ رحيماً بها كي ترحمكَ الحياة.

أومأ برأسه وغادر، فابتسمت، كانت المرَّة الأُولى التي تبتسم بسعادةٍ وفرحٍ منذ رحيل كنان، تركت ما بيدها وركضت إلى القبو، نظرت إلى ما حولها فلم تجد أحداً، نزلت ودخلت غرفة ملك، جلست بجوارها على السَّرير، وبدأت تقصُّ عليها حكاياتها، ثرثرت في كُلِّ أُمور حياتها، إنَّها أوَّل مرَّةٍ تخرج عن دائرة صمتها، وتحدَّثت عمَّا يعتلي صدرها من آلامٍ ومخاوفَ وأحزان، قاطعتها ملك قائلة:

- إنِّي خائفة.

- ممَّا؟
- من الظَّلام، من الوحدة.
- سأكون معكِ دوماً.

بدأت تتشكَّل صداقةٌ بينهما، وصارت وجد تأتي كُلَّ يومٍ إلى ملك لتقصَّ عليها الحكايات، أحضرت لها كُشَّافاً ضوئيَّاً كي لا يقهرها الظَّلام، وصارت تقضي جلَّ أوقاتها معها.

انتهى يناير وجاء فبراير محمَّلاً بالأمطار الغزيرة، كانت ترتدي وشاحاً دافئاً، صعدت إلى الأعلى سعيدةً بما حقَّقته من إنجازٍ في إخراج ملك عن صمتها فارتطمت بالعمِّ جابر، اعتذرت له وكأنَّها ليست مذنبةً فيما رآه، استوقفها قائلة:

- أين كنتِ؟
- كنتُ عند ملك، أصبحنا صديقتين يا عمَّاه.
- ومن سمح لكِ بذلك؟
- أظنُّ أنَّ الإنسانيَّة لا تقتضي منِّي أن آخذ الإذن من أحد.

كانت تتكلَّم بجرأةٍ غير معهودةٍ منها، وجد هذه التي كانت قبل أشهرٍ قليلةٍ من الآن تبكي وتصرخ دون أن تتفوَّه بحرفٍ واحدٍ أصبحت تردُّ الكلمة بأُخرى، ظلَّ يتأمَّل جرأتها حتَّى قالت بهدوء:

- صدِّقني يا عمَّاه ليست لديَّ أسبابٌ معاديةٌ أو مجنونةٌ لفعل هذا الأمر سوى أنَّني أُساعد طفلةً لا ذنب لها في كونها خُلقت غير سويَّة، ساعدني، أرجوك، فهي ابنتكَ الصُّغرى.

تركها ومضى في سبيله، بدا صمته دليل موافقةٍ على ما قالته، اقتربت ملاك منها قائلة:

- أتدرين ما سيحصل الآن؟ ستنفجر قنبلةٌ موقوتةٌ أنتِ السَّبب فيها.
- أأنتِ معي؟ أم ماذا؟
- أنا معكِ يا وجد، وأُحبُّ ملك كثيراً، لكنَّ والدتي لن تسكتَ عن الأمر.

صمتت وجد، فكَّرت:

- ألهذه الدَّرجة هي مخيفةٌ ويخشاها الجميع؟

نظرت إلى ملاك وابتسمت:

- سأُحاول إصلاح الأمر بحيث أنَّ الكُلَّ سيكون راضياً، فلا تقلقي.

جلست حلا مع والدتها وعلاء يستمعون إلى كلام مختار القرية وهو يطلبها للزَّواج، ألقى قنبلته طالباً منهم التَّفكير في الأمر ورحل، لقد سكنهم ثلاثتهم الوجوم فهو يكبرها بعشرين عاماً، قال علاء:

- أنا لستُ موافقاً على هذه المهزلة.

قاطعته حلا:

- أنا موافقة.

صاحت والدتها:

- أجننتِ يا حلا؟
- بل هذا عين العقل، قد وافقتُ على طلبه.

هربت إلى غرفتها بدموعٍ أغشت مقلتيها بينما تبعتها والدتها تاركةً علاء مصدوماً من جديَّة أُخته، لن تتركها والدتها لجنونها إطلاقاً، صرخت فيها قائلةً وتلك مرتميةٌ على سريرها تبكي:

- لمَ يا حلا ترمين نفسكِ في نارٍ لن تحرق سواكِ؟

- لأنَّ لا أحد سيمنحني حُبَّاً حقيقيَّاً ولا أحد سيسحبني إلى جنَّته، علَّمونا أنَّ الفقر ليس عيباً، لكنَّه هنا عار، لا أحد يرانا يا أُمَّاه، أجلس معهنَّ فأرتجف برداً وليس لواحدةٍ أن تُفكِّر في منحي معطفاً يقيني البرد بينما جميعهنَّ يرتدين أثمن المعاطف وأحلاها، لا أحد يلمح هذا الجانب منِّي ولن يشعروا بمرارة ما نشعر، أُريد العيش في ثراءٍ مثلهم، أُريد تجربة مطبخ الأثرياء وطعامهم وملبسهم وحياتهم، فقدتُ شغفي بالحُبِّ، فهذا القلب مُحرَّمٌ على كُلِّ الرِّجال.
- بالإضافة إلى أنَّه يكبركِ بعشرين عاماً، ستكونين زوجةً ثانية.
- لا يهمُّني هذا الأمر، أُريد تحقيق حلمي ولو لساعةٍ واحدة، أنا راضية.

مسحت عبراتها وارتدت ثيابها مستأذنةً والدتها، ذهبت لزيارة ملاك، وعند الأخيرة جلست تقصُّ عليها الأمر، وتلك مشدوهةٌ بما تخبرها به، صاحت ملاك:

- لا تُضيّعي نفسكِ يا حلا بهذا الهراء، أنتِ مازلتِ غاضبة، فلا تتَّخذي قراراً قد تندمين عليه، فكِّري بالأمر قليلاً، وستُدركين أنَّ هذا القرار خاطئ.
- أُريد إكمال حياتي وكأنَّني لستُ أنا، أصبحتُ أكره البدايات بذات الطَّريقة التي كرهتُ فيها النِّهايات، فكرة اقتحام أحدهم أيَّامي الهادئة وبعد الاعتياد عليه يُعلن عن نهايته، ينتشل نفسه من حياتي بسرعةٍ غريبةٍ فتشلُّ قدرتي على استيعاب ما حصل، البداية كما النِّهاية قتلتني، لذلك لم أعد صالحةً لأيِّ حُبٍّ، سأُجرِّب حياةً أُخرى، رُبَّما ألقى سعادتي في هذا الطَّريق.

كانت وجد جالسةً على الدَّرج تستمع لآلام حلا، لم تقترب؛ لأنَّ نظرة العتاب والخذلان منها تُؤلمها، لكنَّها أدركت أنَّ حلا ما هي إلَّا فتاةٌ ذُبحت روحها في معبد القرارات الخاطئة والتَّقاليد المتوارثة.

قفز يامن من النَّافذة بعد أن ظلَّ يراقب البيت ساعاتٍ حتَّى خرج من فيه ولم يبقَ سوى أُخته وملاكه، يعرف أن وجد نادراً ما تغادر غرفتها، اقترب منها وجلس على ركبتيه مقابلها، كانت عيناها تشعُّان سعادةً وهو يغازلها، وهي تُجرِّب كلام الحُبِّ لأوَّل مرَّة، كانت سعيدةً بكلماته وكأنَّها انتشلتها من همومٍ تسكنها، رأت فيه كُلَّ الأشياء الحنونة؛ إذْ منحها الأمان والهدوء والسَّكينة.

- في قلبي رغبةٌ واحدةٌ فقط، وهي رغبتي بكِ ولا شيء سواك.
- خُذني إلى حُبِّكَ إذاً، ولا تبقني هنا، فإنِّي أشعر بالغربة دونك.
- قريباً سأُحدِّث الجميع عنكِ، لن تكوني سرَّاً بيننا.

أفرحتها كلماته اللَّطيفة، وأدركت أنَّه جادٌّ في علاقته معها، صمتت قليلاً وبعدها طلبت منه الذَّهاب كي لا يراه أحد، فزياراته لها أصبحت متكرِّرة وهي تخشى أن يُصادف يوماً وجوده دخول أحدٍ من عائلتها.

- ماذا أفعل يا ملاكي وعيناكِ قد سرقت قلباً تاب عن الحُبِّ، سأستغني عن لحظاتي الجميلة مع الكُلِّ مقابل لحظةٍ واحدةٍ معك.
- هل ستبقى على عهد هذا الحُبِّ وفيَّاً؟
- عهدٌ عليَّ أن أُحبَّكِ في أكثر حالاتكِ سوءاً وأجملها.

سمعا وقع نعالٍ لقادمٍ من الأعلى، أرسل لها قبلةً عبر الهواء وقفز من النَّافذة بسرعة البرق، أسرعت وأغلقتها خلفه وكأنَّها ترتكب جريمةً ستثبت عليها في حال إدانتها، بينما وجد لم تفهم ارتباكها، تحدَّثت معها قليلاً قبل أن تهبط الدَّرج إلى صديقتها لتُحدِّثها عن حياتها كما اعتادت، خرجت بعد ساعاتٍ من مكوثها في الأسفل، صعدت غرفتها، فتحت خزانتها لتختار منامةً فوجدته بداخلها ينتحب بصوتٍ عالٍ، سُحبت الدِّماء من وجهها فبدت شاحبةً كالأموات؛ إذْ اعتقدت أنَّه نسيها ولم يعد يأتيها، تيبَّست قدماها وعجزت عن الحركة، لقد خافت أن ترجع معه إلى نقطة الصِّفر، وعلى الرَّغم من إفراز الأدرينالين بشكلٍ مفرطٍ نتيجة خوفها المبالغ به والذي كاد يُسبِّبَ لها نوبة هلعٍ إلَّا أنَّها تحاملت على ذاتها وظلَّت مكانها تنظر إليه، إنَّها أوَّل مرَّةٍ

يكون فيها قريباً منها هكذا، راحت تتأمَّل تفاصيله جيّداً، قطع خوفها منه حين همس:

- لأنَّكِ تحملين وجهي في ذاكرتكِ ستريننني في كُلِّ مكان.

قفز خارج الخزانة، دخل والتحم بوجد وخرج من خلالها، صرخت، وقف خلفها قائلاً:

- لمَ لم تصنعي أحلاماً جديدةً تجمعنا معاً؟ لمَ توقَّفت اللِّقاءات؟

استدارت إليه بوجهٍ شاحب، اختارت صمت الأموات وهو الحيُّ الذي يتحدَّث بلسانها، أكمل معاتباً:

- كأنَّكِ اعتدتِ حياتكِ هنا وبدأتِ تُحبِّينها، تجاوزتِ أمري ولم يعد يفاجئكِ حضوري، لمَ لم تسألي عنِّي؟ أنسيتِ حُبَّاً أسعدكِ يوماً وكان صادقاً؟

صرخ في وجهها قائلاً:

- أنتِ خائنةٌ يا وجد، لن تُكملي الحياة التي يُطالبكِ الجميع بإكمالها، لن أدعكِ تتجاوزيني ولن تعبريني وتعيش لغيري، أنتِ لي ولن تكوني لسواي.

بكى وانتحب كثيراً حتَّى ذبل كشمعةٍ أرهقتها النَّار، نظرت إلى أثره بدمعٍ ترقرق في العينين، ظلَّت جامدةً تشتمُّ رائحة البخور حين يجيء ويروح، لم تنتبه لدخول مالك الذي هتف باسمها مرَّاتٍ عدَّة ثُمَّ اقترب منها يسألها عن شحوب وجهها، أجابت دون أن تفهم سؤاله:

- أنا لستُ خائفةً منه، أنا لا أخاف.

كانت تتحدَّث وارتجاف جسدها واضحٌ للعين، ابتسم بسخريةٍ وقال:

- ليس العيب أن تخافي فالكُلُّ يخاف، العيب أن تكبتي مخاوفك، العيب أن تعرفي ممَّا أنتِ تخافين ثُمَّ تنقادي له مستسلمةً دون محاولتكِ التَّغلُّب عليه.
- كيف أفعل ذلك وهو يُهدِّدني بين الفينة والأُخرى؟

- قابليه بعين التَّحدِّي، طال أم قصر، إنَّه مُجرَّد روح، لا طعام له في دُنيانا ولا شراب، روحٌ ميِّتةٌ وآثاره لا وجود لها في الحياة، لن يفعل لكِ أكثر ممَّا فعل، أنتِ الأقوى؛ لأنَّكِ مازلتِ تكملين دوركِ في حياةٍ رفضها.

حاولت تغيير الحديث كي لا يُتعبها هذا الكلام، فأخبرته عمَّا سمعته من حلا، صُدم لما قالته، أيعقلُ؟! حلا اللَّطيفة ذات الوجه البريء تتزوَّج من رجلٍ يكبرها بعشرين عاماً من أجل المال؟! ترك وجد وهرع إلى البستان يُمنِّي نفسه أن يلتقيها كي يحثَّها على الرَّفض، ألَّا تكون بهذا الغباء والعناد فُتدمِّرَ نفسها من أجل الانتقام منه.

اقترب منها ونظر إليها بإشفاقٍ على حالها، تمنَّى أن يحميَها من عيون الجميع، قاطعت أفكاره بقولها وهي تستند إلى جذع شجرة الجوز:

- أصبحتَ من روَّاد بستاني في الآونة الأخيرة.

قطف لأجلها وردةً صفراء، اشتمَّ عبيرها، وقال:

- هذا المكان الأحبُّ إلى قلبي، فيه تعرَّف فؤادي على الحُبِّ.
- وفيه نحرته، حين طلبتُ منكَ أن تختار وردةً لعلاقتنا اعتقدتُ أنَّكَ ستختار وردةً حمراءَ دليل حُبٍّ قويٍّ أو وردةً بيضاءَ دليل صداقةٍ لطيفة، لكنَّكَ اخترتَ حكايةً مؤلمة، وردتكَ الصَّفراء كانت نضرةً بالنِّسبة لك ذابلةً بالنِّسبة لي، أدركتُ حينها أنَّ هذا الحُبَّ سينتهي بألم، لكُلِّ وردةٍ في البستان حكاية، وأنتَ اخترت أشدَّها وجعاً.
- ارفضي يا حلا، لا تقبلي بهذه المهزلة، مازلتِ صغيرةً والطَّريق أمامكِ رحبٌ وواسع، ستلتقين الأجمل والألطف والأكمل.
- طريقٌ لستَ فيه لن أمشيَه خطوةً واحدة.
- ألذلك قصرت المسافات؟
- لأعبر وحدي درباً قصيراً، فلا أرى الجانب المظلم من الطَّريق.
- إن كنتِ تظنِّين أنَّكِ بذلك تُعاقبيني فأنتِ لا تُعاقبين إلَّا نفسك، وسيطولكِ دمار قلبكِ، ولن تنجي بسهولة.

- دُمِّرتُ بفضلك، وزواجي منه ما هو إلَّا لترميم ما طاله الخراب بسببك.
- ألا تشعرين بروحي وهي ذابلةٌ أمامك؟
- وهل شعرتَ بألمي؟ ثُمَّ إنَّ هناك أشياء على المرء أن يتخطَّاها رغماً عنه كي لا تُشوِّه روحه.
- لنتزوَّج يا حلا، ونهدم حصون الجفاء بيننا وتصبح الحوارات الوهميَّة التي نُحدثها في رؤوسنا حقيقة.
- أخبرتكَ من قبلُ أنِّي لا أستطيع، وجد ستبقى ضحيَّة وأنا الجانية، النَّاس ستشير إليَّ بأنِّي امرأةٌ لعوب غرَّرت بزوج صديقتها، امرأةٌ تهوى الإيقاع بقلوب الرِّجال، سيتَّهمونني بأنَّني سرقتكَ منها؛ لأنَّني لم أتزوَّج بعد.
- هل ستتقبَّلين أن يقترب منكِ رجلٌ سواي؟
- كما تقبَّلتها أنت.

صرخ بأعلى صوته حتَّى أجفلها، فنظرت إليه:

- لم ألمسها، ولم أقترب منها.
- لأنَّ روح كنان مازالت عالقةً في المنتصف بينكما، لولا روحه لكانت الآن تحمل في أحشائها طفلك.

- أنتِ تكذبين على نفسكِ يا حلا، تُحبّين أن تعيشي دور الضَّحيَّة، وجد من تبتعد بسبب روح كنان، أمَّا أنا لم أخف من تلك الرُّوح يوماً، وعلى الرَّغم من كونه صديقي إلَّا أنَّني لم أقربها بسبب عهدٍ قطعته لكِ في جوف اللَّيل.
- لقد تركتُ مخاوفي بسببك، كان حضنكَ أمانيَّ لأيَّامٍ وأشهرٍ قليلةٍ مقارنةً بالجرح، حتَّى عدتُ من أحضانكَ مصابةً بخيبةٍ قاتلة، ليتني ما تخلَّيتُ عن حذري، وليتني خُذلتُ بموضع خوفٍ لكان الأمر أيسر بالنِّسبة لي، لكنَّكَ خذلتني وأنا أشعر بالرَّاحة والأمان، مطمئنَّةٌ وكأنَّكَ بستاني الآمن.

صمتت قليلاً قبل أن تردف:

- كُلُّ ألفاظ الوداع مُرَّةٌ كالحنظل.

مسحت دمعتها وأدارت ظهرها لرحيلٍ لا عودة بعده بينما قلبها عاند وأراد البقاء، كان الوداع أقلَّ بكثيرٍ من حجم حُبِّهما، كان باهتاً لا يستحقُّه، أتُفارقه الآن فراقاً أبديَّاً لا رجعة فيه؟!

عاد إلى البيت وكأنَّ روحه ودَّعت جسده، لم تُمهله أن يُودعها ويمنحها الوردة الصَّفراء التي قطفها من أجلها، أعطت لنفسها حقَّ الكلمة الأخيرة ومنعت هذا الحقَّ عنه، ومع أنَّه لم يُطق مرارة التَّلويح إلَّا أنَّه أراد التَّلويح لها للمرَّة الأخيرة محتفظاً برائحة عطرها إلى الأبد.

أعلنت حلا موافقتها للمختار، لم يتدخَّل علاء بالأمر مع أنَّه غير راضٍ عن موافقتها، ولم تسمح لوالدتها بالتَّدخُّل، كانت تتكلَّم بعقل أُنثى ناضجة بينما خبَّأت قلبها عن الحكاية بأكملها، وهكذا اتَّفقت العائلتان على ترتيبات الزَّواج.

كانت حفلةُ زفافها أُسطوريَّة، تلألأت الأضواء في كُلِّ مكان، الكُلُّ يرقص بسعادةٍ إلَّاها، كانت تنتظر أن يأتيَها ويسرقها من هذا الحفل غير المبهج بالنِّسبة لها، كان تفكيرها منصبَّاً على من سرق قلبها وهرب به وتركها تكمل حياتها خاليةً من الشَّغف.

جفلت حين لمس كتفها عريسها فأعادها إلى واقعها حين همس في أُذنها متغزِّلاً بجمالها، لم تصل كلماته إلى فؤادها، ابتسمت مجاملة، تأمَّلته قليلاً، كانت تعرف أنَّها خائنةٌ وغير صادقة، لكنَّ قلبها عاق ولن ينصت لصوت عقلها، خرج عن طوعه ولم يستمع له، لم تندم على خيانته بقلبها؛ لأنَّه السَّبب حين اقترب من امرأةٍ معطوبةٍ تصغره بعشرين عاماً.

لم يأتِ مالك ولا وجد، بل ظلَّت في غرفتها تواسيه على خسارته الأبديَّة، لقد امتنعت عن الحضور إكراماً له، بينما علاء نظر بعيداً إلى أُخرى هواها قلبه، كانت تتأمَّله بشوقٍ بين الحين والآخر، وكُلَّما نظر إليها أدارت وجهها محاولةً الاندماج مع الأغاني الشَّعبيَّة حتَّى اقترب منها وجلس على نفس الطَّاولة، ظلَّ صامتاً يتابع حركاتها، ثُمَّ قال بهدوء:

- أترغبين يا عهد أن تكملي المشوار معي؟

ارتعشت لكلماته، ارتجف قلبها طرباً وطارت حولها فراشات السَّعادة، أيُعقلُ أنَّه راغبٌ بها إلى الآن؟ نظرت إليه فرأت بسمةً صادقةً تُزيّن ثغره، أومأت بنعم، فقال لها:

- أتحاربين معي إلى النِّهاية؟

أومأت برأسها، لقد أفقدتها الفرحة قدرتها على الكلام، لم يُطق صبراً، سيجنُّ إن ترك القصَّة ناقصة، هرع إلى والدها، جلس بجواره وطلبها منه، صُدم والدها وكأنَّ القدر يُعاندهم مرَّةً ثالثةً لجمع شمل العائلتين، لم يتوقَّع هذا الجنون من علاء، إلَّا أنَّ الآخر ختم حديثه حين قال:

- بالطَّبع لستَ راغباً في تكرار تجربة وجد وكنان، وأنا لستُ جباناً كأخي فأقتل نفسي، ولا كأُمِّي لأهرب من الدِّيار، وإنَّما سأُحارب حتَّى أصل.

أعجبته شجاعته، فمنحه موافقته، ثُمَّ طلب منه الانتظار ليتناقش مع عائلته بالأمر.

انتهى حفل الزَّفاف على خير، وذهبت حلا مع زوجها بينما مالك مازال في الشُّرفة مستنداً بمرفقيه إلى السُّور، كان يستمع إلى الأغاني الصَّادرة من حفل الزَّفاف حتَّى انتهى وانتهت حكايتهما إلى الأبد، عاد إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه، ارتمى على السَّرير هارباً إلى نومٍ عميقٍ لعلَّه ينسى وجع قلبه.

بينما منير لم ينتظر ليومٍ آخرَ وإنَّما جلس أمام عائلته وقصَّ عليهم ما طلبه علاء منه، صمت يامن، خجلت عهد، انتفضت نادين صارخةً بأنَّها لا تريد هذا الزَّواج وستمنعه كما منعت ذاك الزَّواج، قال يامن بهدوء:

- ونُكرِّر الخطأ ذاته، علاء لا يشبه كنان، إنَّه أقوى بكثير، أنا عن نفسي لن أجد شابَّاً قويَّاً مثله، بلِّغْه بموافقتنا.

سُرَّت عهد وانفرجت أساريرها، فقال منير مؤيِّداً:

- وأنا أُؤيِّد هذه الموافقة، خسرتُ ابنةً، لن أخسر الأُخرى من أجل غيرةٍ حمقاء.

تركوا نادين لنار الغيرة تنهش بها، وكُلٌّ اتَّجه إلى عمله، بينما انتفضت هيفاء صارخة:

- لمَ أنتِ وكنان ابتعدتما عن كُلِّ البيوت واخترتما هذا البيت؟ لمَ الكُلُّ يُؤلم قلبي؟ كُلَّما هنئت بحياتي أجد أحداً منكما يُعكِّر صفوها.

اقترب منها وقبَّل وجنتيها يتوسَّل إليها الموافقة، فهو قد قطع عهداً لعهد ولن يخلفه، وإلَّا لن يكون رجلاً في عين نفسه.

وافقت إذعاناً لطلب ابنها المُتبقِّي لها، وبعد يومين كانت الزَّغاريد تنطلق من بيت منير بينما كانت هيفاء ونادين تنظران لبعضهما بحقدٍ دفين.

صدح صوت سعاد عالياً وهي ترى ملك في حديقة المنزل، بدأت تنهال بالشَّتم على وجد من كُلِّ حدبٍ وصوب، كان لسانها سليطاً كالمبرد لا يتوقَّف، وقفت وجد حائلاً بينها وبين ملك، هي تعلم بأنَّها خالفت قوانين العائلة وتمادت في أخطائها لكنَّها لن تصمت بعد الآن وهي ترى الجميع يعيش حياته إلَّا هذه الصَّغيرة، ظلَّت صامتةً تستمع إلى التَّوبيخ حتَّى جاء جابر ومالك، ناداهما جابر لتدخلا كي لا يُحدث صراخهما فضيحةً لدى الجوار، دخل الجميع وهي مازالت تشتم وجد:

- أنتِ عارٌ على عائلتنا، زوَّجتك ابني كي أتجنَّب مشكلةً كبيرة فأحدثتِ أكبر منها في بيتي، أنتِ يا وجد لعنةٌ حلَّت على الجميع.

هدر جابر في وجهها قائلاً:

- أنتِ السَّبب فيما حصل، إن كان في الماضي أم الحاضر، ثُمَّ إنَّ ملك ستعيش ما بقي لها من حياةٍ مع إخوتها، لن أنفيَها من حياتي مُجدَّداً.

صاحت وأزبدت وأرعدت حتَّى اقتربت من وجد تبغي صفعها، فوقف مالك حائلاً بينها وبين زوجته، صُعقت حين رأته يدافع عنها، لقد خشيت أن يكون قد هام بها دون علمها، ظلَّت تنظر إليه متناسيةً أمر ملك حتَّى قالت:

- ماذا فعلت لعقلكَ حتَّى تحميَها منِّي؟
- ليس بالضَّرورة أن تفعل، يكفي أنَّها زوجتي، ومسؤوليَّتي تقتضي حمايتها.
- حتَّى من أُمِّك؟
- حتَّى من نفسي.

نظرت إلى الأرض تُفكِّر في حلٍّ يُنقذها من هذه الورطة، لقد أجمعوا أمرهم أن يقفوا ضدَّها، لم يُساندها أحد، أفاقت من صدمتها على مناداة جابر للخادمة يأمرها أن تأخذ ملك إلى الأعلى، جحظت عيناها وقالت:

- أأنتَ جادٌّ يا جابر؟ خمسة عشر عاماً أُحاول إخفاءها عن الجميع لتُخرجها الآن أمامهم، ماذا سيكون حالي حيالهم، سيجعلونني حديث مجتمعهم.

- أنا أخطأتُ يا سعاد حين طاوعتكِ في إخفائها وسلَّمتكِ زمام حياتها، لكنَّني الآن قد أيقظتُ ضميري ولن أتخلَّى عنها.
- وواجهتي أمام النِّسوة؟
- لا يهمُّني الأمر، ملك ستعيش معنا حياةً سويَّة شئتِ أم أبيتِ، لها الحقُّ في هذا البيت مثلها مثلنا، إذا لم يُعجبكِ هذا الحال بإمكانكِ الرَّحيل.
- أتطردني يا جابر بعد هذا العمر الطَّويل الذي قضيناه معاً؟
- أنا أوضِّح الحقوق ليس إلَّا، كُلُّنا قسونا على طفلةٍ بريئة، آن أوان أن نُكفِّر عن أخطائنا، وعلينا أن نشكر وجد؛ لأنَّها أيقظتنا من سباتنا قبل فوات الأوان.

مرَّت الأيَّام بسلام، صارت ملك تجلس كُلَّ يومٍ بصحبة وجد وملاك، لم تعد تخشى الظَّلام، والوحدة صارت بعيدةً عنها.

اعتادت على ساكنيّ المنزل وضحكاتها شقَّت سكون البيت، هذا البيت السَّاكن أصبح مليئاً بصخب ضحكاتها وسعادة الجميع.

أمَّا سعاد فإنَّها خافت على ذاتها من فضيحةٍ كُبرى تلحق بها إن أحدثت مشكلة، وهكذا صكَّت أسنانها وألجمت لسانها وهدَّأت ذاتها، اعتكفت في محرابها كي تتجنَّب أسئلة الجيران عن ملك؛ إذ صارت حكايتها محور الحكايات، والكُلُّ يلومها ويُعاتبها على ما فعلته بالصَّغيرة، وهي تلوم نفسها وتلعنها ألف مرَّةٍ على إقحام وجد في حياتها، تلك التي أوصلت حال بيتها إلى هذا الحال.

اقتربت هيفاء من حلا، وجلست بجوارها على الأريكة الفخمة، وسألتها بتوجُّس:

- أسعيدةٌ أنتِ الآن؟
- أعيش في راحة، ليست سعادةً بقدر ما هي قناعة، زوجي يُحاول إسعادي بشتَّى الطُّرق، إنَّه يُدلِّلني، ويُطعمني كُلَّ يومٍ عسلاً طيِّب المذاق أتذوَّقه لأوَّل مرَّة، وعدني بالكثير من الأشياء، وها قد أصبحتُ من الأثرياء.

وضعت هيفاء يدها على صدر ابنتها وقالت:

- وهذا؟
- هذا لم يُعطِني سوى الوجع، كان الحُبُّ عاصفاً قويَّاً، كيف تحوَّل إلى ذرَّاتٍ من الغبار، لا أدري؟! تناثر في لحظاتٍ وكأنَّه لم يكن، الحُبُّ آلم معدتي وشلَّ تفكيري، ونزع قلبي من مكمنه، استجلب الخوف والألم.

نظرت إلى والدتها، وأردفت:

- مازلتُ أذكر تلك اللَّيلة الباردة التي نفد فيها الحطب من دارنا، كانت ليلةً قاسية، وعلى الرَّغم من السِّنين التي مرَّت إلى الآن لم يخرجِ البرد من جسدي، الأثرياء لا يشعرون بالفقراء، كنتُ أرتجف برداً كُلَّما اجتمعتُ مع صديقاتي، لم تشعر بي إحداهنَّ، لكم تمنَّيتُ لو تمنحني إحداهنَّ معطفاً بالياً أتدفَّأ به، بينما هنَّ كنَّ يبدِّلن معاطفهنَّ كُلَّ أسبوع، وأنا أقف معهنَّ أرتجف برداً ولا أرتدي إلَّا كنزةً واحدةً تستر جسدي ولا تُدفِّئني.
- هل بإمكانكِ أن تتجاوزي تلك الأيَّام مع زوجك؟ أخشى عليكِ من عنوسة القلب.
- لا عليكِ، ستغدو حياتي أفضل من ذي قبل؛ لأنَّني الآن فهمتُ الحياة وأخفضتُ سقف توقُّعاتي، لا أتوقَّع منه شيئاً ثُمَّ يُفاجئني بكُلِّ شيءٍ سعيد، أنا الآن أحيا بعقل امرأةٍ ناضجة لا امرأة تبحث عن الحُبِّ في سواد القلوب.
- والخوف القابع بين ضلوعك؟
- رحل ولم يبقَ منه شيء، أعيش الآن في أمانٍ لطالما حلمتُ به، زوجي يُحبُّني على الرَّغم من أنِّي لا أُكِنُّ له

الحُبَّ ذاته لكنِّي أُحاول منحه الأمان الذي افتقدته من قبل، عاملني بما يستحقُّ قلبي، لم أهن عليه كما هنتُ على من قبله.

أغلقت حلا بحديثها مع والدتها صفحة الماضي، وعلى الرَّغم من أنَّ الذِّكريات تباغتها أحياناً وتنتزعها من حياتها إلَّا أنَّها حرصت على ألَّا تُؤثِّر على حياتها، اعترفت بأنَّها شوائبُ عالقةٌ في أسفل ذاكرتها، ستمضي بها الأيَّام وتنسيها كُلَّ ذكرى جمعتها معه ذات يوم، إنَّها الآن في ديارٍ آمنةٍ برفقة رجلٍ مُحِبٍّ يسعى لإرضائها، لذلك لم تندم على قرارها هذا، فأحياناً حياة العقل أسعد وأكثر راحةً من حياة القلب المرهقة.

دخل مالك إلى منزله فتفاجأ بيامن يجلس على ركبتيه أمام ملاك والأخيرة تضحك لكلماته، هدر بأعلى صوتٍ باسم شقيقته، جفل الاثنان، صرخت ملاك، اقترب مالك من يامن وأمسكه من تلابيب قميصه يعنِّفه على تعدِّيه على حرمة المنزل، جاءت وجد على صراخهما، هرعت تحاول إنقاذ أخيها من براثن زوجها لكنَّه دفعها بعيداً فأوقعها أرضاً، سدَّد له اللَّكمات والرَّكلات في أنحاء جسده، وذاك عاجزٌ عن الدِّفاع عن نفسه، صدح صوت جابر عالياً على ابنه أن يتوقَّف عن همجيَّته، تعب من ضربه فجلس على الأرض وأطرق رأسه ذُلَّاً ومهانة، وملاك تبكي في حضن وجد، مسح يامن الدَّماء عن وجهه، سأل جابر عن الأمر فأجابه مالك باختصار عمَّا رآه، هوى جابر على الأريكة وقال بألم:

- أهانت عليكَ حرمة بيتي؟ أنتَ يا يامن يا من سعيتَ جاهداً لقصِّ جناحي أُختكَ كي لا تطير وتهرب بعيداً، أنتَ الذي عنَّفتها وضربتها مرَّاتٍ عدَّةً وحبستَها لأنَّها أحبَّت لم تُدخله البيت ولم تدخل بيته، لم تلتقِ وإيَّاه خلف عتمة الأشجار بل كانت تقابله أمام الجميع، ومع

ذلك اتَّهمتها بأنَّها عارٌ على عائلتكم وسعيتَ جاهداً للخلاص منها بتزويجها، والآن أخبرني ما أنتَ فاعلٌ بقلب طفلةٍ لم تعرف معنى الحُبِّ؟

ثُمَّ صرخ في وجهه:

- وثقتُ بكَ وأدخلتكَ بيتي، لا لتلوِّثَ شرفي وتُسدِّدَ طعنتكَ في قلبي، لمَ لوَّثتَ قلبها بوحشيَّتك؟ اتركها لبرائتها، فهي أنقى النَّاس من أن تُدنَّسَ من قبلك، ارحل الآن قبل أن أُخرج شياطيني من مكمنها، وإن رأيتكَ تحوم حول هذا البيت فإنِّي قاتلكَ دون أن أسمع تسويغاً منك.

أطرقَ رأسه أرضاً، ثُمَّ نظر إلى وجد فرأى في عينيها خذلاناً لم يره من قبل، حتَّى حين مات كنان وكان يُعنِّفها باستمرارٍ لم يرَ هذه النَّظرة، لم يستطعِ النَّظر إلى ملاك، خرج يعرج على قدمه يمشي بألمٍ وكأنَّه يمشي على جمرٍ مشتعل، ظلَّ الصَّمت يلفُّ المكان حتَّى قال جابر موجِّهاً حديثه لطفلته:

- أهانت عليكِ نفسكِ لتقتلي قلبكِ قبل أن يتفتَّح، مازلتِ بُرعماً صغيراً، لمَ تُصرِّين على أن تذبلي قبل أوانك.

ثُمَّ وقف ومشى قليلاً، واستدار إليها قائلاً:

- خنتِ ثقتي بكِ وأنتِ مقعدة، فعلتِ ما لم تفعله واحدةٌ غيرك، فكيف لو كنتِ تمشين على قدميكِ لكنتِ ذهبتِ وإيَّاه إلى منزله؟

استدار ذاهباً إلى غرفته يُعنِّف زوجته؛ لأنَّها السَّبب في إهمالها لطفلتيها، بينما وقف مالك وقال:

- من يدخل من النَّافذة لا يدخل من الباب، لا أحد يتوه عن باب البيت، لو كان صادقاً ما كان دخل من النَّافذة كاللُّصوص، لو كان صادقاً لكان طلب يدكِ وليس هناك ما يمنعه، لن أضعَ الحقَّ عليكِ كوالدك لكنَّي سأقول إنَّها تجربةٌ مفيدةٌ لكِ كي تعرفي الصَّح من الخطأ، هي تجربةٌ مؤلمةٌ لقلبكِ لكنَّها ستُنجيكِ ذات يوم، لا تستعجلي الحُبَّ سيأتيكِ وأنتِ في مكانكِ ووضعكِ لم يتغيَّر، سيُحبُّكِ لأنَّكِ ملاك ولن يقف مقعدكِ هذا حائلاً بينكما.

تركها هو الآخر تُفكِّر وتبكي في أحضان وجد، فهي خانت ثقة أهلها، لن يسامحَها والدها بعد الذي رآه.

مرَّت أيَّامٌ ووجد تحاول مع العمِّ جابر إصلاح ذات البين بينه وبين طفلته، وتحاول مع مالك أن يُساعدها في الأمر، وجابر يمتنع عن الصُّلح لمعاقبتها على ما أجرمت في حقِّ نفسها.

كانت ملاك تنظر من النَّافذة تُراقب زمجرة الرَّعد، فبراير ليس لطيفاً الآن ويحمل في جُعبته غضباً لم يحمله من قبل، اقترب منها والدها، قبَّل رأسها، نظرت إلى أعلاها فدمعت عيناها حين رأت الحنان يشعُّ من عينيه، ركع على ركبتيه وعانقها عناقاً أبويَّاً حارَّاً، لقد عرف أنَّه عاقبها عقاباً لاذعاً لكنَّ قلبه كان يُعذِّبه من أجلها، أراد أن يُعاتبها مرَّةً أُخرى على فعلتها وخاصَّةً أنَّها لم تُبرِّر له الأمر، فأجابته:

- كُنتُ خائفةً ألَّا يُحبَّني أحدهم بسبب هذا المقعد، إنِّي لا أرى أحداً ولا أخرج البتة حتَّى جاءني وحده، كان كنسمةٍ رطبةٍ في يوليو، كموجةٍ دافئةٍ في يناير، هكذا كان في منتصف اليأس والأحزان جاء كوميض نورٍ في حلكة أيَّامي وأودعَ في فؤادي الحُبَّ والسُّرور، كان حُبُّه مُخيفاً؛ لأنَّني مشيتُ معه تائهةً كوزرٍ ارتكبته في جنح اللَّيل، جاءني هذا الحُبُّ عاصفاً مُحمَّلاً بالأخطاء التي

أعماني الحُبُّ عن رؤيتها، ولم تتَّضِح لي إلَّا بعد انتهاء الحكاية.

- لكنَّ الحكاية لم تنتهِ بعد.
- كيف ذلك؟
- راجعي نفسكِ وستعرفين أنَّكِ لم ترتكبي جرماً في حقِّ نفسك، لقد هربتِ في الوقت المناسب.
- الآن أنا سعيدةٌ لأنَّني لم أعد خائفةً من أن يُغرمَ بي إنسان، اقتنعتُ بحالي ورضيتُ فأرضاني الله.

قبَّل رأسها سعيداً بحال ابنته التي غيَّرتها تجربةٌ قصيرةٌ لكنَّها مؤلمةٌ في آنٍ واحد، وفي النِّهاية نضجت قبل أوانها، لقد أدركت أنَّ المُحِبَّ يأتي من باب البيت لا من نافذته.

وقف مالك أمام النَّافذة، فتحها قليلاً كي يُخرج الدُّخان من رئتيه وهو ينفث سيجارته بألم، وقفت وجد وراءه، انتبه لها دون أن يستدير، قال:

- أراكِ قد تحسَّن حالكِ ولم تعد روح كنان تزوركِ هذه الأيَّام.
- لا أدري السَّبب، ولكن أشعر بأنِّي تحرَّرت أخيراً من هذا الخوف.

استدار إليها وقال:

- أنتِ بالأساس لم تكوني سجينته، كان السِّجن في عقلك، وحين شغلتِ نفسكِ بمشكلة ملك وأخذت كُلَّ تفكيرك صار عقلكِ يُبعدكِ عن ذكراه، وصرتِ تمضين أيَّامكِ برفقتها فنسيته، وهكذا طرد عقلكِ الأوهام التي كانت تُحرِّض الذِّكريات وتُثيرها، لذلكِ عدتِ إلى حياتكِ الطَّبيعيَّة.

- وأنتَ متى ستعود إلى حياتكَ العاديَّة؟ حلا وتعيش بسعادةٍ مع زوجها، إنَّها راضيةٌ بما قسمه الله لها، لمَ لا تنظر إلى حياتك، أنتَ لستَ السَّبب فيما حصل.
- حلا حكايةٌ جميلةٌ وإن انتهت إلَّا أنَّني لا أُريد أن أكتب لها نهاية، لا أُريد تصديق أنَّها أصبحت ملكاً لغيري، سأكتفي بأحلامي التي جمعتني بها وإن كانت أحلاماً من طرفٍ واحد.

سكت قليلاً، استدار إلى النَّافذة مرَّةً أُخرى وراح ينفث دخانه، تأمَّل سيل طوفان فبراير، قال بهدوء:

- رجال هذه القرية محكومون بالهموم، جميعنا نتخطَّى سنوات عمرنا وفي جُعبتنا همومٌ لا تراها نساؤنا، لستنَّ وحدكنَّ المظلومات بحكم تقاليدَ لا تنفعكم، نحن مجبرون على تنفيذها؛ لأنَّنا نُفكِّر بعقلٍ كي نستمرَّ في الحياة بأوجاع أقلَّ، لكنَّ الحياة لا تهدينا سوى آلامٍ تشقُّ قلوبنا، لا أحد يراها يا وجد؛ لأنَّها تُميتُ قلوبنا دون أن تُصدرَ أنيناً مُؤلماً.

استدار إليها فلمح الدَّمع في عينيها، اقترب منها، أدركَ أنَّه ظلمها معه، لم يقربها إطلاقاً ولم يلمسها؛ لأنَّها ليست من حقِّه، وهو ليس من حقِّها، كنان وقد مات وحلا وقد تزوجت ما الذي يمنعه عنها؟ اقترب منها يُريد معانقتها ومسح عبرات الحزن المشعَّة في عينيها، فرأى لأوَّل مرَّةٍ شيخاً هرماً، وقف حائلاً ما بينهما، بوجهٍ لا عينين له، كان حزيناً والعبرات تنسكب من محجرين فارغين، ابتعد عنها، هذا الوجه يشبه وجه صديقه كنان إلى حدٍّ بعيد، يبدو أنَّ هذه الرُّوح لا تُريد التَّصديق إلى الآن أنَّ وجد قد أصبحت ملكاً لغيره، ذهب الخوف من قلب وجد، وعاد الأمان يسكن روحها، بينما مالك قد بدأ كنان اللَّعب معه على أوتار غرامه مع وجد.

تمَّت

٢٠٢٤/٦/٢٠

من رحم الألم يُولد الإبداع